أعلام المسلمين

٧١

السلطان المظفر سيف الدين قطز

بطل معركة عين جالوت

د. قاسم عبده قاسم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى ورئيس قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

دار القلم

دمشق

السلطان المظفر

سيف الدين قطز

بطل معركة عين جالوت

د. قاسم عبده قاسم

استاذ تاريخ العصور الوسطى ورئيس قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

هـذا الرَّجُل

السلطان الشهيد . . كان فارساً شجاعاً، سائساً، ديِّناً، محبَّباً إلى الرعية، هزم التتار، وطهَّر الشام منهم يوم عين جالوت . . ويَسْلَم له إن شاء الله جهاده . وكان شاباً أشقر، وافر اللحية، تام الشكل، وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوَّض الله شبابَه بالجنّة، ورضي عنه .

الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء وفي تاريخ الإسلام

كان شجاعاً بطلاً، كثير الخير، ناصحاً للإسلام وأهله، وكان الناس يحبونه ويدعون له كثيراً .

ابن كثير في البداية والنهاية

كان بطلاً، شجاعاً، حازماً، كسر التتار كَسْرة جَبَر بها الإسلام، واستعاد منهم الشام، فجزاه الله عن الإسلام خيراً .

ابن العماد

في كتابه شذرات الذهب

. . . وشاءت المقادير لهذا البطل أن يحتفظ بثواب جهاده كاملاً في ذلك اليوم الأغر، فلا يضيع عليه منه شيء، وهو يحكم الناس، ويدبِّر شؤون المُلْك، وتُساق إليه بهارج الحياة الدنيا، فلم يلبث أن قضى شهيداً سعيداً ـ إن شاء الله ـ بعد ذلك اليوم بوقت قصير، وكانت الشهادة له نوراً على نور .

مؤرخ معاصر

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَـدّمَة

ثمـة لحظات مثيرة سـاطعة في تاريخ كل أمـة تتجلّى أثناءها خصائصها، ويتألّق في ضوئها أبطالها. وتاريخ أمة الإسلام حافلٌ بمثل هذه اللحظات المثيرة الساطعة، كما أن أبطال هذه الأمة عديدون، بحيث يفوقون في عددهم وتأثيرهم أبطال أية أمة أخرى. وما بين الحرب والفلسفة، والسياسة والفن، وبناء المدن والأدب، والزراعة والمـلاحـة، والفقـه والمـوسيقـى، والتجـارة والـدراسـة، والـرحلـة والفلك . . . وما إلى ذلك، برزت أسماء كثيرة من أبناء أمة الإسلام، الذين شادوا حضارة لم يعرف العالم لها مثيلاً، من قبل أو من بعد، سواء من حيث مجالها الجغرافي أو من حيث مداها الزمني.

ونحن في هذه الدراسة الموجزة بإزاء واحدة من تلك اللحظات المثيرة الساطعة في تاريخ أمة الإسلام، وأمام واحد من أبطال اللحظات النادرة في تاريخ الأمم، ينتظمه العقد الفريد الذي انتظم قبله خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، وعمرو بن العاص، وموسى بن نصير،

ومحمد بن القاسم، وطارق بن زياد. . . وغيرهم كُثُرٌ في تارخ أمتنا في مجال الحرب والجهاد.

فهذه الدراسة تتناول سيرة رجل سطع في سماء تاريخ المسلمين لفترة قصيرة زمنياً؛ ولكن سطوعه كان باهراً، بحيث ترك تأثيراً بقي على مرِّ القرون قوياً مؤثّراً، ينبّئ عن الشجاعة الأخلاقية، وإنكار الذات، والإيمان بحق الحياة وحق الدفاع عن هذه الحياة.

فالسلطان المظفّر سيف الدين قطز دخل إلى رحاب التاريخ من باب الرقّ والعبودية الضيق، وسرعان ما فُتحت أمامه أبواب تاريخ المسلمين الواسعة مرحّبةً، عندما كرَّس مواهبه العسكرية والسياسيّة لخدمة الدفاع عن المقدَّسات.

وطالت قامته التاريخية على كثيرين من الحكّام عندما تجسَّدت في شخصه إرادة أمة الإسلام في معركة عين جالوت، التي كسرت الموجة المغولية الطاغية، والتي كانت بداية سلسلة من التغيّرات؛ كان أهمها تحوّل المغول إلى الدين الإسلامي، بحيث صاروا قوّة فاعلة في بناء حضارته.

إنّ قصة سيف الدين قطز، المملوك والسلطان الشهيد، مثال حيّ على أن الحاكم لا يحتلّ مكانه في تاريخ أمّته سوى بتحقيق الإنجازات التي تتوافق مع أمانيها، وأن ذلك ليس مشروطاً بطول فترة حكم الحاكم

أو قصرها، وإنما هو مشروط بمدى قدرة الحاكم على أن يكون زعيماً لأمته، يخوض بها الصعاب، لكي تحتل مكانها الذي تستحقه بين أمم الأرض.

كانت الفترة التاريخية التي ظهر أثناءها البطل الشهيد سيف الدين قطز تشكّل منعطفاً تاريخياً هامّاً في تاريخ أمة المسلمين؛ إذ كان الوجود الصليبي الكاثوليكي مايزال جاثماً على الأرض العربية الإسلامية ببلاد الشام. وعلى الرغم من الدور الرائع الذي قام به المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي لتقليص اللون الصليبي فوق خريطة الأرض العربية، فإن سياسات خلفائه المهادنة المتخاذلة مدّت في عمر الكيان الصليبي مئة سنة أخرى، بل إن أوروبا كانت مازالت تحدوها الروح العدوانية لتدعيم الوجود الفرنجي على الأرض العربية، وانتزاع المزيد من الأرض العربية لصالح الاستيطان والتوسّع الأوروبي... فكانت الحملة التي قادها لويس التاسع ضد مصر، والتي عرفها مؤرّخو حروب الفرنج الصليبيين باسم الحملة الصليبية السابعة. وقد أسفرت هذه الحملة عن ثلاث نتائج غاية في الأهمية:

١ ـ تدمير جيش الحملة الصليبية عن بكرة أبيه، وأسر الملك الصليبي وكبار قادة جيشه، وفشل الحملة السابعة.

٢ ـ القضاء على دولة الأيوبيين في مصر.

٣ ـ قيام دولة سلاطين المماليك.

ويرتبط بهذه النتيجة الثالثة ظهور بطل هذه الدراسة ـ الموجزة ـ السلطان المظفَّر سيف الدين قطز، الذي كان عليه أن يقود المواجهة ضد خطر آخر قادم من الشرق يجتاح بلاد العالم الإسلامي بسرعة مذهلة، هو خطر المغول الذي وحَّدهم جنكيز خان، ثم بدأ يغزو العالم بهم.

ومن مفارقات التاريخ المذهلة أن سيف الدين قطز ـ واسمه الأصلي محمود بن ممدود ـ من بيت خوارزم شاه، كان من ضحايا الغزو المغولي لبلاد المسلمين في أول الأمر؛ ثم قُيِّض له أن يكون القائد الذي ينجح جيشه في كسر المدِّ المغولي الطاغي في عين جالوت ببلاد الشام.

ومِثْل أبطال المأساة الإغريقية كان على البطل الشهيد سيف الدين قطز أن يلقى حتفه في غمرة انتصاره، وكأن التاريخ كان يدَّخره لمهمة واحدة محددة لم يسمح له بأن يتجاوزها.

فالبطل الذي ظهر فجأة كالشهاب في سماء تاريخ المسلمين انطفأ فجأة كالشهاب أيضاً، ولكن وَمْضته القصيرة كانت كافية لحرق جموع المتخاذلين من أمراء المسلمين من ناحية، وجموع المعتدين من جند المغول من ناحية أخرى.

هذه الدراسة الموجزة، بحكم ندرة المعلومات التاريخية وقِصَر

الفترة الزمنية، لا تحاول نسبة البشر إلى الأبطال الأسطوريين أو إلى آلهة العالم القديم؛ ولكنها تحاول أن تقول ببساطة: إن البطل التاريخي إنسان، بكل مزايا الإنسان ونقائصه، ولكنه استحقّ مكانته بفضل إيمانه ووضوح رؤيته ورؤاه، وبفضل شجاعته الأخلاقية وتضحيته في سبيل الدفاع عن مقدَّسات الأمة، فالتفَّ حوله الناس، وآزروه وساعدوه على تحقيق النصر وانتزاع مكانته على مسرح التاريخ.

ولأن التاريخ فعاليات بشرية، فإنه يقدّم لنا الإنسان كما هو، برِفْعته وضِعَته، بآماله وإحباطاته، برقَّته وقسوته، بتديّنه وهمجيّته. ومن ثَمَّ فإننا نرجو القارئ الكريم ألاَّ يسارع إلى إصدار الأحكام الأخلاقية على أبطال هذه القصة، وإنما يحاول تقدير ما وراء ذلك كلّه من أسباب ودوافع إنسانية. فقد أدَّى قطز دوره بقدر ما أمكنه من جهد، ولقي ربّه آمناً مطمئناً، كما حظي بتقدير المؤرخين الذين كتبوا سيرته، والجنود الذين عملوا تحت قيادته، والمسلمين الذين قدَّروا تضحيته.

ويبقى أن أعتذر للقارئ الكريم عن الإيجاز في هذه الدراسة؛ إذ أن صعوبة الحصول على المادة التاريخية من ناحية، وقِصَر الفترة التاريخية من ناحية أخرى، جعلا مهمّتي صعبة إلى حدٍّ كبير؛ فقبل أن يتولّى قطز عرش السلطة لم تحفل المصادر التاريخية بحياته مذ خطفه تجار الرقيق صبياً، وبعد ولاية العرش حالت فترة حكمه القصيرة دون

توفّر الكثير عن المملوك الذي صار سلطاناً. ولم يكن سوى إنجاز وحيد، بَيْد أنه إنجاز بالغ الأهمية: هو قيادة المسلمين في معركة عين جالوت وبيسان... وهذا الإنجاز الوحيد هو الذي يُعطي المشروعية العلمية لمثل هذه الدراسة. والله الموفّق والمستعان.

د.قاسم عبده قاسم

٢٧ أكتوبر ١٩٩٧م

الفصل الأوّل

الظّروف التاريخيّة لقيام دولة سلاطين المماليك

الفصل الأول

الظروف التاريخية لقيام دولة سلاطين المماليك

أيام الأيوبيين الأخيرة، حملة لويس التاسع وهزيمته في المنصورة
بروز القوة العسكرية والسياسية للمماليك
نهاية وبداية، توران شاه وشجر الدر (آخر الأيوبيين وأول المماليك)

على الرغم من أن دولة سلاطين المماليك (٦٤٨هـ/ ٩٢٢هـ - ١٢٥٠/ ١٥١٧م) ورثت ممتلكات دولة الأيوبيين ومسؤولياتها السياسية والعسكرية، فإن المتأمّل في تاريخ الدولتين يشعر بحق أنهما جاءتا استجابة سياسية عسكرية لظروف العالم الإسلامي عامة، والمنطقة العربية منه خاصة، في فترة حرجة من التاريخ الطويل للحضارة العربية الإسلامية.

ومن المثير حقّاً أن دولة الأيوبيين انتهت - وقامت على أنقاضها دولة المماليك - لنفس السبب الذي أدّى إلى قيامها على يد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، أي مسؤولية التصدّي لأعداء الأمة الذين

احتلّوا القدس وأجزاء من فلسطين وبلاد الشام، وباتوا يهدِّدون بقية المنطقة العربية.

فقد فشل الأيوبيون الأواخر في استكمال الدَّوْر التاريخي الذي أفرز دولتهم، وبدلاً من اهتماماتهم بالجهاد ضد العدو الفرنجي، وجَّهوا طاقاتهم وقدراتهم السياسية والعسكرية للاقتتال فيما بينهم، بل وصل الأمر ببعضهم إلى درجة الاستعانة بالفرنج ضد البعض الآخر.

وبسبب حال التشرذم السياسي والتناحر العسكري فيما بين ملوك الأيوبيين الصغار، تراجع دورهم التاريخي أمام دور المماليك، الذين ربَّاهم الأيوبيون ليكونوا عدّتهم العسكرية ضد بعضهم البعض.

ومن رَحِم الظروف التاريخية التي أحاطت بالأيوبيين الأواخر، خرجت دولة سلاطين المماليك التي نجحت في انتزاع الدور التاريخي من الأيوبيين. بَيْد أنها واجهت مسؤولية هذا الدور التاريخي أيضاً؛ فقد تعيَّن على سلاطين المماليك مواجهة خطر مزدوج من جانب سادتهم السابقين من بني أيوب، ومن الفرنج والغرب الأوروبي المتربّص بالعالم العربي.

لقد اشتعلت الحروب الداخلية بين ملوك الأيوبيين بالشكل الذي أغرَى القوى الفرنجية الصليبية بالتدخّل لصالح فريق ضد فريق، وتجمّعت القوى الأيوبية المتناثرة في بلاد الشام في حلف بائس مع الصليبيين ضد

السلطان الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر وكبير الأيوبيين.

لقد انضمّ الملك الصالح إسماعيل ـ حاكم دمشق ـ والملك الناصر داود ـ حاكم الكرك ـ والملك المنصور إبراهيم ـ حاكم حمص ـ إلى الصليبيين في تحالف غريب ضد الصالح نجم الدين أيوب حاكم مصر. وتنازل أولئك الحكّام الثلاثة، مرة أخرى، عن منطقة المسجد الأقصى وقبة الصخرة للفرنج، كما وعدوا الفرنج بأن يملّكوهم جزءاً من مصر عندما يتمكّن هذا الحلف من هزيمة الصالح نجم الدين أيوب.

هكذا تحتّم على الصالح أيوب أن يواجه أقاربه بالسلاح، وكفلت له موارد مصر الهائلة أن يجنّد جيشاً يفوق الإمكانيات العسكرية الهزيلة لهذا التحالف البائس، وجنَّد عدداً من الجنود الخوارزمية، الذين كانوا قد وفدوا إلى المنطقة العربية بعد أن دمَّر المغول دولتهم، يبيعون خدماتهم العسكرية لمن يدفع أكثر.

ونجح جيش الصالح نجم الدين أيوب والخوارزمية في الاستيلاء على دمشق وبيت المقدس ونابلس، وضمّوها إلى أملاك الملك الصالح، وتمّ تدمير جيوش التحالف سنة ١٢٤٤م في المعركة التي اشتهرت باسم «معركة غزة»(١).

---

(١) استمرّت هذه المعركة عدة ساعات فقط، وخسر التحالف الصليبي ـ الأيوبي آلاف القتلى والأسرى، انظر: المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك: =

بعد ذلك غيَّر الخوارزمية ولاءهم، وانقلبوا ضد الصالح نجم الدين أيوب، ومن هنا بدأ اعتماده يتزايد على المماليك؛ مما مهَّد السبيل لظهورهم قوة عسكرية، ثم سياسية في المنطقة، لم تلبث أن سيطرت على مقاليد الأمور. ومن خضمّ الأخطار التي واجهها العالم الإسلامي، والمنطقة العربية منه خاصة، خرجت دولتهم لتحكم المنطقة قرابة ثلاثة قرون من الزمان.

ولنتابع قصة الصراع الذي خاضه الصالح نجم الدين أيوب ضد مخاطر الأيوبيين والصليبيين في بلاد الشام وأوروبا، فبينما كانت جيوش الصالح أيوب تواصل انتصاراتها في بلاد الشام وفلسطين؛ جاءت الأنباء تسعى إليه عن حشود تتجمّع تحت راية الصليب في قبرص بهدف غزو مصر والاستيلاء عليها.

وعلى الرغم من مرضه؛ عاد السلطان الصالح نجم الدين إلى مصر بعد أن عقد صلحاً مع الملك الناصر يوسف صاحب حلب بوساطة الخليفة العباسي، وبدأ في ترتيب أوضاعه العسكرية للدفاع عن مصر ـ ودمياط تحديداً ـ ضدّ الهجوم الصليبي المرتقب.

= ١/ ٣٢٢، ١/ ٣١٧؛ أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١٧٨؛ أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر: ٣/ ١٧٢ ـ ١٧٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦/ ٣٢٢ ـ ٣٢٤.

وتحكي المصادر التاريخية أن الإمبراطور فردريك الثاني ـ صديق الأيوبيين وعدو البابوية اللدود ـ أرسل واحداً من رجاله متخفّياً في زيّ تاجر ليحذِّر الملك الصالح من الحملة الصليبية التي كانت آخذة في التجمُّع بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع[1].

هذه الحملة كانت الاستعدادات تجري لها في الغرب الأوروبي بالتنسيق بين البابا إنوسنت الرابع والملك الفرنسي لويس التاسع منذ استرداد المسلمين لمدينة بيت المقدس سنة ١٢٤٥م. ولم يكن هدف هذه الحملة إعادة الاستيلاء على بيت المقدس فقط، وإنما كانت تهدف أيضاً إلى تكوين حلف مسيحي/ وثني بين الصليبيين والمغول لهدم الدولة الأيوبية في مصر والشام، ووضع المنطقة العربية الإسلامية بين شِقَّي الرَّحَى. وقد يؤدّي هذا ـ على نحو ما تصوَّرت البابوية والقوى الأوروبية ـ إلى القضاء على الإسلام ونشر المسيحية من ناحية، والاستيلاء على ثروات العالم الإسلامي والسيطرة على طرق التجارة الدولية من ناحية أخرى.

والواقع أن فكرة الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا جاءت مصاحبة للفكرة الداعية إلى تطويق العالم الإسلامي بحلف

---

(١) ابن واصل، مفرِّج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢/ ٤٥؛ المقريزي، السلوك: ١/ ٣٣١، هامش ٣.

مغولي/ صليبي على نحو ما يشير المؤرخ الفرنسي جوانفيل كاتب سيرة لويس التاسع، والذي أرَّخ لحوادث الحملة الصليبية السابعة.

فقد ذكر هذا الرجل، الذي كان من ضباط الحملة الصليبية، أنه بينما كان الملك في قبرص يستكمل استعداداته لغزو مصر، أرسل له (ملك التتر العظيم) رُسُلاً يحملون رسائل ودية «. . . توضِح أنه على استعداد لمساعدته في غزو مصر وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين. . .»[١]، ولكن مشروع التحالف المغولي/ الصليبي فشل؛ لأن المغول كانت لهم أحلامهم الخاصة بالسيادة على العالم، ولم تسفر السفارات المتبادلة والرسائل الكثيرة التي تبادلوها عن شيء حقيقي[٢].

كانت خطة البابوية الكاثوليكية تقوم على أساس أنه يمكن للحملة التي يقودها لويس التاسع أن تهاجم المنطقة العربية من سواحل البحر المتوسط، بعد أن تبدأ باحتلال ميناء دمياط ـ أهم موانئ الحوض الشرقي للبحر المتوسط آنذاك ـ، على حين تتقدّم القوات المغولية لتشنّ هجومها

---

(١) Joinville, The life of Saint Louis, (transl. with an introduction by M.R.B Shaw 0, Penguin 1975, pp. 197 - 198.

(٢) عن تفاصيل السفارات والرسائل المتبادلة بين خان المغول والبابا إنوسنت الرابع؛ انظر: عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي، (مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٦م)، ص ٥٨ ـ ٨٠.

على المنطقة من الشرق بعد اجتياح الجناح الشرقي من العالم الإسلامي، وبذلك يصفو الجوّ للبابوية بحيث تحقق أحلامها[1].

وأرسل البابا إنوسنت الرابع سفارتين لهذا الغرض، بيد أن خان المغول الأعظم كان يرى الأمور من جانب معاكس لأحلام البابوية الكاثوليكية، فقد أرسل يطلب من البابا أن يعترف له بالسيادة ويعلن خضوعه هو وملوك أوروبا له، بحيث يقدِّمون جميعاً فروض الولاء والطاعة، كما طالبه بأن يأتي جميع ملوك أوروبا إلى بلاطه لتقديم الجزية له باعتباره الخان العظيم للتتر وسيد العالم كله.

هكذا فشل مشروع التحالف بين المغول وأوروبا الكاثوليكية بزعامة البابا؛ لأن كلاًّ من الطرفين كان قد وضع خططه وتصوّراته على أساس استغلال الآخر، بَيْد أن المغول والصليبيين أخذوا يهاجمون العالم الإسلامي من المشرق والمغرب في آن معاً، وكل من الطرفين يعمل لحسابه.

فقد استمرّت هجمات التتر تطوي بلدان الشرق الإسلامي حتى وصلت إلى حدود مصر ـ على نحو ما سنرى في الفصول القادمة ـ، بينما كان المشروع الصليبي يحاول تنفيذ مراحله الأولى بالهجوم على

---

(١) Atiya (A.S>), The Crusades in the Later Middle Ages, (Lon - 5 don 1938), p.234; Runciman, A Hist. of the Cusades, III, pp. 90 - 258.

مصر في الحملة التي قادها لويس التاسع، وعرفها المؤرّخون بالحملة الصليبية السابعة.

ومن المثير أن دولة سلاطين المماليك قد خُلِقت في رَحِم هذه الأخطار، وبينما كانت معركة المنصورة الظافرة ضد جيوش الحملة الصليبية السابعة بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك، كان انتصار الجيش الإسلامي بقيادة السلطان المظفَّر سيف الدين قطز بمثابة تأكيد هذا الميلاد وتدعيمه.

فقد كان الأيوبيون قد تخلَّوا عن دورهم التاريخي ـ سبب وجود دولتهم ومبرر بقائها ـ في التصدي للصليبيين، وآثروا الالتزام بسياسة المهادنة حتى يتفرّغوا لمنازعاتهم الداخلية، ومن ثَمَّ فإن دولتهم التي جاءت استجابة ناجحة للتحدِّي الذي فرضه العدوان الصليبي على المنطقة، لأن صلاح الدين الأيوبي ـ مؤسس الدولة ـ التزم بسياسة الجهاد ضد الصليبيين، فقدت مبررات وجودها منذ أخذ ملوك بني أيوب وسلاطينهم يعزفون عن الجهاد ضد الصليبيين، ويميلون إلى سياسة المهادنة والتعايش السلمي.

وفي خضمّ أحداث الحملة الصليبية السابعة برزت قوة جديدة أثبتت قدرتها على التصدّي للصليبيين، وقيادة المنطقة العربية الإسلامية في مواجهتهم، تلك هي قوة فرسان المماليك. ومن ثَمَّ فإن أحداث هذه

الحملة تستحق قدراً من التفصيل في تناول أحداثها ووقائعها .

بيد أننا ينبغي أن نلاحظ أن سقوط الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية لم يغيّر من اتّجاه الحركة التاريخية في المنطقة؛ فالواقع أن الدولة المملوكية جاءت امتداداً لدولة بني أيوب، بَيْد أن المماليك نجحوا فيما فشل فيه الأيوبيون ـ أعني توحيد المنطقة العربية في مواجهة الخطر الصليبي والخطر التتري .

وعلى الرغم من جهود العادل، ثم الكامل، فالصالح نجم الدين أيوب العسكرية ضد الصليبيين؛ فالواضح أنها كانت جهوداً دفاعية تأتي ردَّ فعل للهجمات والحملات الصليبية(١) .

ومثلما ولدت الدولة الأيوبية في خضمّ الصراعات ضد الفرنج الصليبيين، فإن سقوطها في مصر ـ ثم في بلاد الشام بعد ذلك ـ جاء نتيجة ظهور قوة بديلة أثبتت أنها أقدر من الأيوبيين على القيام بالدور التاريخي للدولة العسكرية التي يقودها ملك محارب .

وكان المماليك ـ والسلطان المظفّر سيف الدين قطز من أوائل سلاطينهم ـ هم الذين يجسّدون هذه القوة الجديدة، وبسبب نجاحهم فيما فشل فيه الأيوبيون احتلّت دولتهم مكان الدولة الأيوبية، بَيْد أنها

---

(١) Hamilton A.R. Gibb, "The Ayyubids", in Setton (ed), A - 6 Hist. of the Crusades, II,pp. 714 - 716.

كانت امتداداً لها في بنائها، وطبيعتها العسكرية، والأسس السياسية والاقتصادية التي قامت عليها.

وكانت أحداث الحملة الصليبية السابعة التي انتهت سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م بأسر الملك لويس التاسع نفسه، وتبدُّد فرسان جيشه وجنوده ما بين قتيل وأسير، عقب الهزيمة المخزية التي أوقعها به الجيش المصري في المنصورة بمثابة إرهاصات الميلاد لدولة سلاطين المماليك.

وقد برز زعماء فرسان المماليك البحرية من أمثال «فارس الدين أقطاي» و«عز الدين أيبك» و«ركن الدين بيبرس البندقداري»... وغيرهم، خلال المعارك ضد الحملة الصليبية السابعة، وأظهروا شجاعة وقدرة عسكرية فائقة[١].

ففي خريف سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م أبحر الأسطول الصليبي بقيادة لويس التاسع من ميناء مرسيليا الفرنسي إلى جزيرة قبرص، وهناك كان على الملك الفرنسي أن ينتظر فترة من الوقت حتى تتكامل قواته. وفي ربيع العام التالي (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) أقلعت سفن الحملة تجاه الشواطئ المصرية لتصل بعد أقل من شهر أمام ميناء دمياط. وفي العشرين من شهر صفر سنة ٦٤٧هـ/ ٤ يونيو ١٢٤٩م بدأ الإنزال الصليبي أمام دمياط،

---

(١) عن المماليك البحرية ودورهم في تلك الفترة، انظر: أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، (بيروت ١٩٨٦)، ص ٩٦-١٠٠.

وتقدّمت قوات الصليبيين وأمامهم لويس التاسع يخوض المياه الضحلة قرب الشاطئ وهو يرفع سيفه ودرعه فوق رأسه. وعلى الجانب الآخر انسحب المدافعون عن المدينة بسرعة بعد أن ظنّوا أن سلطانهم الصالح نجم الدين أيوب المريض قد مات. وإذ خرجت الحامية العسكرية فرّ السكان المذعورون من دمياط(١).

وهكذا سقطت دمياط في أيدي قوات الحملة الصليبية السابعة دون قتال... ودمياط التي دوّخت قوات الحملة الصليبية الخامسة بمقاومتها الشرسة استسلمت في وداعة مذهلة لقوات الملك لويس التاسع. وما أن تأكد الصليبيون من حقيقة النصر السهل، ومن أنه ليس في الأمر خدعة أو كمين، حتى أخذوا يدعمون وجودهم في المدينة الأسيرة التي سقطت بأيديهم دون جهد(٢).

---

(١) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، (مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ـ القاهرة، ١٩٩٣م)، ص ١٦٣ ـ ١٦٥.

(٢) ذكر المقريزي ما نصّه: «أصبح الفرنج يوم الأحد، لسبع بقين من صفر، سائرين إلى مدينة دمياط، فعندما رأوا أبوابها مفتحة، ولا أحد يحميها خشوا أن تكون مكيدة، فتمهّلوا حتى ظهر أنَّ الناس قد فرُّوا وتركوها. فدخلوا المدينة بغير كُلفة ولا مؤونة حصار..»، انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك: ١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦، وقارن بما ذكره جوانفيل عن توزيع الغنائم بين الملك وأمرائه:

Joinville, The Life of Saint Louis, pp.206 - 207.

واستقبل السلطان المريض أنباء سقوط دمياط التي بذل جهداً مضنياً في سبيل تحصينها، بمزيج من الألم والمرارة. وأعدم عدداً من الفرسان الهاربين. بَيْد أنه تحامل على نفسه وتجاهل آلامه، ونقل معسكره إلى مدينة المنصورة التي كانت قد خرجت إلى الوجود قبل ثلاثين سنة فقط من ذلك التاريخ.

ومن هناك بدأت حرب عصابات ساهم فيها المصريون إلى جانب المتطوّعين الذين وفدوا من فلسطين وبلاد الشام وبلاد المغرب الإسلامي. وبمرور الوقت تزايدت أعداد الأسرى الصليبيين الذين خطفهم المجاهدون من معسكراتهم، وتعدّدت مواكب أسرى الفرنج في شوارع القاهرة بالشكل الذي زاد من حماسة الناس ورفع معنويات المقاتلين. ومن ناحية أخرى قامت البحرية المصرية بدورها في حصار قوات الحملة وتدمير خطوط إمدادها في فرع دمياط(١).

وأخيراً جمع الملك لويس التاسع مجلس الحرب لتقرير خطة الزحف صوب القاهرة، وكشفت المناقشات عن انقسام شديد في الرأي بين الصليبيين بخصوص خطة الزحف. وعلى الرغم من هذا الانقسام خرجت القوات من دمياط في يوم السبت ١٢ شعبان ٦٤٧هـ/ ٢٠ نوفمبر

---

(١) عن التفاصيل الكثيرة لهذه الأحداث، انظر: محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع وهزيمته في المنصورة، ص ١١٦ ـ ١٦٤.

١٢٤٩م، وسارت بحذائها في فرع النيل أعداد كبيرة من السفن. وفي دمياط بقيت حامية صليبية قوية، كما بقيت زوجة الملك مرجريت البروفنسالية.

وربما كانت وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب التي حدثت في ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧هـ/ ٢٢ نوفمبر سنة ١٢٤٩م من أهم أحداث تلك المرحلة؛ إذ أن وفاة ذلك السلطان أفسحت المجال لظهور قوة المماليك، كما كشفت عن عجز الأيوبيين بشكل مثير.

ويبدو أن السلطان كان قد رتّب أمور الحكم مع زوجته شجر الدر قبل وفاته، وتولّت شجر الدر ترتيب أمور الدولة، وإدارة شؤون الجيش في ميدان القتال، وأخفت نبأ موت السلطان، وأعلنت أن الأطباء منعوا زيارته. وفي الوقت نفسه أرسلت إلى توران شاه ـ ابن الصالح نجم الدين أيوب ـ تحثّه على مغادرة حصن كيفا ـ بالقرب من حدود العراق ـ وعلى سرعة القدوم إلى مصر لكي يعتلي عرش السلطنة[١].

---

(١) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر: ٣/ ١٨٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٦/ ٣٢٨. وقد ذكر المؤرخ جمال الدين أبو المحاسن ابن تغري بردي أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب كان أهم سلاطين بني أيوب بعد صلاح الدين نفسه، مبرراً ذلك بقوله: «... ولو لم يكن من محاسنه إلا تجلّده عند مقابلة العدوّ بالمنصورة، وهو بتلك الأمراض المزمنة، وموته على الجهاد، والذبّ عن المسلمين، ما كان أصبره وأغزر مروءته...»، انظر النجوم الزاهرة: ٦/ ٣٣٠.

في تلك الأثناء كانت قوات الحملة الصليبية السابعة تخوض في أوحال الدلتا بعد موسم الفيضان، ثم دخل الفرنج مدينة فارسكور دون مقاومة تذكر. وتسرّب خبر وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب على الرغم من كل احتياطات شجر الدر.

وعلى الجانب المصري بدأت الإمدادات من الرجال والمؤن والعتاد تتدفّق على معسكر الجيش في المنصورة[1]، وبدأت حرب عصابات ضد معسكر الفرنج على الشاطئ المقابل كبّدتهم خسائر كثيرة، كما سبّبت لهم قدراً كبيراً من الفزع والقلق.

وقد دفع ذلك الملك لويس التاسع إلى قرار الهجوم على المعسكر المصري، وبعد عدة تطوّرات تفصيلية جرت المعركة داخل مدينة المنصورة بين طلائع الجيش الصليبي بقيادة كونت أرتوا ـ شقيق لويس التاسع ـ وفرقة الداوية، وفرقة من الفرسان الإنجليز من ناحية، والجيش المصري والمتطوّعين بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري من ناحية أخرى.

---

(١) ذكر جوانڤيل ما نصُّه: «كان المسلمون يدخلون معسكرنا كل ليلة ويقتلون رجالنا عندما يجدونهم نائمين، وقد تصرّفوا بهذا الشكل لأن السلطان كان يعطي قطعة ذهبية في مقابل كل رأس لرجل مسيحي...»، انظر, Joinville, opcit. pp.209 - 210

كـان بيبرس قد أعدَّ خطـة ماكرة لقتال الفرنج في رحاب مدينـة المنصورة، ووافقت شجر الدر على الخطة؛ وكانت هي صاحبة النفوذ الفعلي بعد موت الصالح نجم الدين أيوب.

فقد أعدَّ بيبرس عدة كمائن من الفرسان داخل المدينة، وطلب من الأهالي البقـاء بمنازلهم دون حركة، مع الاستعداد للانقضاض على فرسان العدو عند اللحظة المناسبة.

وكانت فرقة من الصليبيين بقيادة شقيق الملك تتسابق مع فرسان الداويـة ـ الذين اشتهروا بقسوتهم ووحشـيتهم ـ وفرقة من الفرسـان الإنجليز، الذين استفزّتهم غطرسة الكُوْنْ أَرْتْوا وكلماته الجارحة، لكي يفوزوا بشرف اقتحام المدينة.

ودخل هؤلاء جميعاً إلى المدينة الصامتة، وأخذوا يتجوّلون في شوارعها الخالية، وظنّوا أن الحامية والأهالي قد فرّوا منها.

وبينما هم في زهوهم وخيلائهم يبحثون عن الغنائم والأسلاب، وتحدوهم الرغبة في ارتكاب واحدة من المذابح البشرية التي اشتهروا بها؛ فُتحت عليهم أبواب الجحيم، وأطبق عليهم فرسان المماليك وأهالي المنصورة والمتطوّعين من كل ناحية، وتبعثرت قوات الصليبيين المذعورين في ثنايا المدينة. وقد وضع الأهالي المتاريس الخشبية والحجريـة والطينيـة لعرقلـة فرسان الصليبيين، كما قذفوهم بشـتى

«القذائف المنزلية» من فوق أسطح المنازل ومن الشرفات والنوافذ. وانقشع غبار المعركة عن عدد كبير من القتلى الصليبيين بينهم شقيق الملك نفسه «الكونت أرتوا» وعدد كبير من النبلاء. ولم ينجح في الهرب من المذبحة سوى عدد قليل من الفرسان هربوا على أقدامهم ليلقوا بأنفسهم في مياه النيل، حيث غرقوا بعد أن طاردهم المصريون بالسهام والحراب والسيوف[1].

وفي مكان آخر بالقرب من أشموم طناح كان الجيش الصليبي الرئيسي بقيادة الملك لويس يستعد للقاء الجيش المصري الذي تولّى قيادته آنذاك الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، ولم تكن أنباء الكارثة التي جرت على طليعة الجيش الصليبي في المنصورة يوم ٤ ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ/ ٨ شباط ١٢٥٠م قد وصلت إلى أسماع الملك لويس وجيشه.

وفي اليوم التالي لمعركة المنصورة عقد فارس الدين أقطاي الصالحي ـ القائد العام للجيوش المصرية ـ مجلس حرب عَرَض فيه على ضباطه معطفاً قصيراً عليه شارة البيت الملكي الفرنسي كان يرتديه الكونت

---

(١) Joseph R. Strayer, "The Crusades of Louis IX" in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades, II, pp.487 - 518

انظر أيضاً: ابن واصل، مفرّج الكروب: ٢/ ٣٦٦.

أرتوا شقيق الملك الذي قُتل في المنصورة، ظنّاً منه أنه معطف الملك نفسه، وأعلن أن مقتل الملك يستوجب مهاجمة الجيش الفرنجي بلا تردد. وبدأ الهجوم الذي تمكّن الفرنج من صدّه بعد أن تكبّدوا خسائر فادحة[1].

بعد هذه المعركة بعدة أيام ـ أي في ٢٧ شباط ١٢٥٠م/ ٢٣ ذي القعدة ٦٤٧هـ ـ جاء المعظّم توران شاه ابن الصالح نجم الدين أيوب. وتم الإعلان رسمياً عن وفاة السلطان، وسلّمت شجر الدر للسلطان الجديد الشاب مقاليد الأمور. ولم يلبث أن تولّى قيادة الجيوش بنفسه، وغيّر من جانبه خطط المواجهة العسكرية ضد الصليبيين. فوضع خطة لإجبار الصليبيين على التسليم؛ فأمر بحمل عدة سفن مفككة على ظهور الجمال، ثم تركيبها وإنزالها خلف الخطوط الصليبية لمهاجمة الأسطول الصليبي، وأسْر عدد كبير من سفنه المحمّلة بالمؤن والأقوات.

وساءت حالة الفرنج، وطلب قائدهم الملك لويس التاسع الهدنة، وعرض تسليم مدينة دمياط للمصريين في مقابل مدينة بيت المقدس؛ ولكن المصريين رفضوا الاقتراح الصليبي، وفضّلوا الحرب. ومن المثير أن غرور الملك الصليبي جعله يغفل أنه في وضع لا يسمح له بوضع الشروط في طلب الهدنة.

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب: ٢/ ٣٦٦ـ٣٣٨؛ المقريزي، السلوك: ١/ ٣٥١ ـ٣٥٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٦/ ٣٦٣؛

Runciman, S., A Hist of the Crusades (Cambridge 1957), III, P. 267 - 363

وقرب مدينة فارسكور دارت معركة رهيبة قضى فيها الجيش المصري تماماً على الجيش الصليبي. وضاع الفرنج بين القتل والأسر. وتمّ أسر الملك لويس نفسه في قرية «منية عبد الله» شمال مدينة المنصورة، وتم نقله إلى دار ابن لقمان، حيث بقي سجيناً فترة من الزمان[1]. ثم أسفرت المفاوضات النهائية عن الإفراج عنه لقاء فدية مالية كبيرة، وتمّ الاتفاق على الجلاء الفرنجي من دمياط.

وعلى الرغم من الانتصار الإسلامي الرائع على الحملة الصليبية السابعة؛ فإن السلطان الأيوبي توران شاه كان إخفاقاً أيوبياً جديداً مهّد الطريق أمام نهاية الدولة الأيوبية وصعود الدولة الجديدة التي شادها المماليك، وكان السلطان المظفّر سيف الدين قطز واحداً من السلاطين الأوائل الذين أرسَوا لبناتها الأولى.

لقد فشل توران شاه في الاستجابة للتحديات التي كانت تفرضها الظروف التاريخية، وبدلاً من تكريس جهوده لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تماماً، بدأ يدبّر للتخلّص من شجر الدر وكبار أمراء المماليك. وبدلاً من أن يحمد السلطان الجديد لزوجة أبيه دورها في

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب: ٢/ ٣٦٨؛ المقريزي، السلوك: ١/ ٣٤٥ ـ ٣٥٨، ٣٦٣ ـ ٣٦٤. وكانت الفدية التي تقرّرت على الملك الصليبي أربعمئة ألف دينار؛ انظر. Joinville, the Life of Saint Louis, pp.220 - 264; Joseph R. Staryer, "The Crusande of Louis IX", pp. 487 - 518

مقاومة الحملة الصليبية وحفظ عرش البلاد له، أخذ يضغط عليها ويهدّدها متّهماً إياها بالاستيلاء على أموال أبيه، فخافت منه وفرّت إلى مدينة بيت المقدس، حيث بقيت هناك فترة تنتظر ما تسفر عنه الأيام.

من ناحية أخرى، كان توران شاه يحسد المماليك على المكانة التي حققّوها لأنفسهم بفضل سيوفهم وشجاعتهم في القتال ضد الفرنج في المنصورة وفارسكور، وسيطر عليه شعور بأنهم يزاحمونه في حكم البلاد.

وتحكي المصادر التاريخية أن السلطان المعظّم توران شاه كان فتىً عنيف الأهواء، ورث عن أبيه السلطان نجم الدين أيوب الكآبة والكبرياء، مما نفّر منه أمراء المماليك. كذلك أعرض السلطان عن المماليك، وأظهر لهم الجفاء، على حين أغدق المناصب والعطايا على رجاله الذين جاؤوا معه من أعالي الجزيرة[1].

وقد وصف أحد المؤرخين المعاصرين هذا السلطان، بقوله: «... كان سيِّئ التدبير والسلوك، ذا هوج وخفّة...»، كما حكى مؤرّخون آخرون أنه كان يسكر في الليل، ثم يمسك بسيفه ويطفئ به الشموع الموضوعة أمامه واحدة فواحدة، وهو يقول: «هكذا أفعل بالبحرية». ومع كل شمعة يطفئها سيفه كان ينطق باسم واحد من زعماء

---

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٣٥٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٦/ ٣٧١.

المماليك البحرية. ونقل الخدم هذه الأخبار إلى زعماء المماليك البحرية، فعرفوا نواياه وأضمروا له السوء.

وتلاقت مخاوف شجر الدر مع مخاوف زعماء المماليك وغضبهم، بعد أن حرمهم السلطان الجديد من إقطاعاتهم[1]. وهكذا استقرّ الرأي على ضرورة التخلُّص من آخر السلاطين الأيوبيين في مصر، وتمّ تنفيذ المؤامرة بأيدي كبار أمراء المماليك البحرية، وهم: الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، والأمير قلاون الصالحي، والأمير أقطاي الجمدار.

وفي صباح يوم الإثنين ٢٧ المحرَّم سنة ٦٤٨هـ/ ٢ مايو ١٢٥٠م كان السلطان توران شاه يتناول طعام الإفطار، وبعد أن فرغ من طعامه في الخيمة السلطانية بفارسكور تقدّم نحوه ركن الدين بيبرس وضربه بسيفه ضربة تلقّاها بيده فقطعت أصابعه، وجرى توران شاه ليحتمي ببرج خشبي في معسكره على شاطئ النيل، فأضرم المتآمرون النار في البرج، فنزل يجري صوب النيل والسهام تناله من كل جانب، فرمى نفسه في الماء، ولحقه أقطاي وقتله. ويقول المقريزي: إنه مات «... جريحاً غريقاً محترقاً...»[2].

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٦/ ٣٥٨ـ٣٧١.
(٢) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١٨٥؛ أبو الفداء، المختصر: ٣/ ١٨١ ـ١٨٣؛ المقريزي، السلوك: ١/ ٣٥٩.

تبدّدت دماء السلطان المعظَّم توران شاه في موجات مياه نهر النيل، ومعها تبدَّدت آخر مظاهر السلطة الأيوبية الحقيقية في مصر؛ وإن بقي لها ظلّ يتوارى خجلاً إلى جانب الأضواء التي فرضت نفسها على مسرح التاريخ آنذاك. إذ كان الأيوبيون الأواخر قد فقدوا كافة مبرّرات البقاء في حكم المنطقة العربية بعد أن تخلّوا عن دورهم التاريخي الذي بدأه صلاح الدين.

وقد أدَّى فشل الأيوبيين الأواخر في الاستجابة للتحدّي السياسي/ العسكري الذي أفرزه الوجود الصليبي على الأرض العربية إلى عجزهم عن البقاء على عروشهم. ونشأ عن ذلك نوع من الفراغ السياسي خرج فرسان المماليك من طياته، بفضل كفاءتهم العسكرية من ناحية، وقدرتهم على توجيه دفة الصراع السياسي/ العسكري في المنطقة من ناحية أخرى.

لقد كانت أحداث الحملة الصليبية السابعة، التي تحدّثنا عنها في الصفحات السابقة، فرصة لإظهار أهمية فرسان المماليك البحرية، كما أتاحت لهم فرصة أخرى لإدراك أهميتهم السياسية.

وحين لم يجد المماليك أحداً من الرؤوس الأيوبية المتوّجة في بلاد الشام يستطيع كبح جماحهم ويتولّى قيادتهم، قرّروا حلَّ مشكلة العرش على طريقتهم. وهكذا ظهر في الأفق السياسي للمنطقة مرة أخرى مبدأ

«الحكم لمن غَلَب» الذي قال به السلطان العادل الأيوبي ذات مرة.

كانت الخطوة الأولى في هذا السبيل خطوة انتقالية؛ إذ اختار المماليك أرملة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، الأميرة شجر الدر لكي تجلس على عرش السلطنة بعد مصرع توران شاه. ولما كانت السيدة جارية تركية ـ وقيل أرمينية ـ اشتراها السلطان الراحل ثم أعتقها وتزوّجها، فقد اعتبرها بعض المؤرّخين المعاصرين أولى سلاطين المماليك في مصر. ويقول المؤرخ «تقي الدين المقريزي»: «وهذه المرأة شجر الدر، هي أول من مَلك مصر من ملوك الترك المماليك...»[1].

وعلى الرغم من أن شجر الدر قامت بدور بطولي بعد موت زوجها السلطان الصالح نجم الدين أيوب ضد الفرنج في الحملة الصليبية التي قادها لويس التاسع، فإن الرأي العام في مصر وفي العالم العربي والإسلامي لم يكن ليقبل بقيام امرأة على كرسي الحكم، إذ كان التراث السياسي للحضارة العربية الإسلامية قد استقرّ على أن يكون الحاكم رجلاً. كذلك رفض الخليفة العباسي الاعتراف بالسلطانة الجديدة، واتّسمت ردود أفعال الأيوبيين الحاكمين في بلاد الشام بالعصبية والضيق، ورفضوا الاعتراف بهذا التتويج، وحاولوا القيام بعمل عسكري للاستيلاء على مصر.

---

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٣٦١.

من ناحية أخرى حاولت «شجر الدر» أن تحكم باعتبارها أم ولد، ونسبت نفسها إلى زوجها الراحل السلطان الصالح نجم الدين أيوب، والخليفة العباسي المستعصم بالله، ونقشت على العملة عبارة «المستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين، والدة السلطان خليل أمير المؤمنين»[١]. وقبضت السلطانة الجديدة على زمام الحكم بيد من حديد مما جعل مؤرّخاً معاصراً يصفها بأنها «امرأة صعبة الخلق، شديدة الغَيرة، ذات شهامة زائدة، وحُرمة وافرة، سكرانة من خمر التيه والعجب...».

وقد وجّهت شجر الدر جهودها الأولى للتخلص من بقايا الحملة الصليبية السابعة. إذ كانت الملكة الفرنسية مارجريت ـ زوجة لويس التاسع ـ تقيم في دمياط مع الحامية على حين كان زوجها وكبار أمرائه رهن الأسر في دار ابن لقمان بالمنصورة، ومعهم اثني عشر ألفاً ومئة وعشرة من الأسرى الفرنج. ودارت المفاوضات التي انتهت بالاتفاق على فدية قدرها ثمانمئة ألف دينار يدفع الملك الأسير نصفها قبل رحيله، والباقي بعد وصوله إلى عكا. وجمعت الملكة مبلغ الفدية ثم رحلت إلى عكا ومعها ابنها. وتم تسليم دمياط للمصريين في السادس من يونيو ١٢٥٠م، وفي اليوم التالي أبحر لويس التاسع إلى عكا[٢].

---

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٣٦٢.

(٢) Joinville, The Life os St.Louis, pp.220 - 264

من رَحِم هذه النهاية التعسة للحملة الصليبية السابعة ولدت دولة سلاطين المماليك لكي تحكم المنطقة العربية، وتدافع عنها طوال ما يزيد على مئتين وسبعين عاماً. بيد أن الفترة التي امتدّت من بداية سلطنة «شجر الدر»، حتى نهاية سلطنة «السلطان سيف الدين قطز» كانت هي الفترة الانتقالية في عمر هذه الدولة، كما كانت إرهاصاً بالأساس السياسي الذي قامت عليه الدولة. فقد شهدت مصرع ثلاثة من السلاطين الخمسة الذين حكموا أثناءها، ولم ينجُ الاثنان الآخران من القتل سوى لأنهما كانا في سن الطفولة. ويحسن بنا أن نتناول هذه الأحداث بإيجاز حتى نصل إلى الخلفية التي برز منها «سيف الدين قطز».

أخذت السلطانة «شجر الدر» تتقرّب إلى الخاصة والعامة من أهل الحكم والرعية، بَيْد أن الرأي العام المصري، بتراثه السياسي والاجتماعي الذي تشكّل في إطار الحضارة العربية الإسلامية، صدمته حقيقة أن امرأة تجلس على عرش البلاد وتوجّه شؤون الحكم علناً وبصورة رسمية. وهو الأمر الذي كان يناقض اتجاهات الثقافة السائدة من ناحية، والنظرية السياسية الإسلامية من ناحية أخرى.

وعبّر المصريون عن غضبهم من خلال المظاهرات والاضطرابات التي استشرت في جميع أنحاء العاصمة، مما اضطرّ السلطات إلى إغلاق بوابات القاهرة منعاً لامتداد مشاعر السخط والغضب إلى المناطق الريفية.

وكان من الطبيعي أن يعارض المتعلّمون والمثقّفون، الذين كانت ثقافتهم قد تكوّنت داخل الإطار المعرفي للحضارة العربية الإسلامية، اعتلاء شجر الدر عرش البلاد. وأُلقيت الخُطب في المجالس والمحافل ومن فوق منابر المساجد، كما أُلِّفت الرسائل ـ وهي نوع من الكتابة في موضوع واحد، كان يشبه الأعداد الخاصة التي تصدرها الدَّوْريات حالياً حول موضوع كان يشغل الرأي العام ـ حول المصائب والكوارث التي يمكن أن تحلّ بالمسلمين إذا حكمتهم امرأة. وكتب الشيخ عز الدين بن عبد السلام، أبرز قادة الرأي في مصر آنذاك، رسالة تعتبر مثالاً صارخاً على اتجاهات الفكر والثقافة السائدة.

من ناحية ثانية، رفض الخليفة العباسي المستعصم بالله المساندة الشرعية لشجر الدر، وردَّ على طلب التفويض الذي وصله ردّاً يحمل من السخرية والحسم ما أنهى حكم السلطانة بسرعة، إذ جاء في ردِّ الخليفة «. . . إن كانت الرجال قد عدمت عندكم أعلمونا حتى نُسيّر إليكم رجلاً . . .».

وهكذا أدرك أمراء المماليك والسلطانة أنهم يحاولون السباحة ضد تيار جارف لابد وأن يغرقهم في طياته. وبعد ثمانين يوماً تنازلت شجر الدر عن الحكم لواحد من أمراء المماليك الصالحية، هو عز الدين أيبك التركماني الصالحي الذي تولّى عرش البلاد تحت اسم «السلطان

الملك المعزّ عز الدين أيبك».

كانت الفترة التي حكم فيها المعز أيبك هي الفترة التي بدأ يسطع فيها نجم الأمير سيف الدين قطز، الذي لم يلبث أن تولّى الحكم ليقوم بإنجاز مهمة تاريخية جسيمة خبّأها له التاريخ.

وعلى الرغم من أن فترة حكم سيف الدين قطز قصيرة في مداها الزمني، فإن إنجازه التاريخي كان عظيماً بالقدر الذي حقّق له مكانة في تاريخ المسلمين، تفوق كثيراً مكانة أولئك النفر من «الحكام النكرات» الذين يحتلون في الزمن مساحة كبيرة في مداها، ولكنهم لا يجدون لأنفسهم مكانة في التاريخ وإن صغرت وتضاءلت.

لقد كانت قصة سيف الدين قطز ـ المملوك والأمير والسلطان والشهيد ـ تجسيداً لمأساة الإنسان الفرد من ناحية، وشاهداً على ما يمكن أن يفعله التاريخ بالإنسان، وما يمكن أن يفعله الإنسان بالتاريخ من ناحية أخرى. وهذه قصة تستحق أن نستمع إلى فصولها.

* * *

الفصل الثاني

دولة سلاطين المماليك
الأساس السياسي

الفصل الثاني

دولة سلاطين المماليك
الأساس السياسي

من هم المماليك، التربية والتدريب، العلاقات داخل المؤسسة المملوكية، الوضع السياسي والاجتماعي للمماليك وظائف الدولة

«المماليك» مصطلح فرض نفسه على تاريخ مصر والمنطقة العربية طوال فترة تزيد على ثلاثة قرون من الزمان، لا سيما بعد أن نجح أولئك المجلوبون عبيداً في طفولتهم في بناء دولة إقليمية عظمى حكمت مصر والشام والحجاز بشكل مباشر، كما فرضت نفوذها السياسي وقيادتها للمنطقة العربية، ومدَّت سطوتها إلى كافة مستويات العلاقات السياسية والدبلوماسية في عالم البحر المتوسط والبحر الأحمر وإفريقيا على السواء. فمن هم المماليك؟.

يَشي مصطلح «المماليك» (والمفرد مملوك) بالعبودية والرق؛ لأنه يعني أنه «المملوك» ملكية خاصة لشخص آخر. وقد كان «المماليك» من الرقيق فعلاً؛ بيد أنهم كانوا من نوع خاص من الرقيق، إذ كانوا يُجلبون

أطفالاً من أسواق النخاسة، ثم يتم تدريبهم عسكرياً، ليكونوا عدَّة حكام المنطقة العربية من الأيوبيين المتنافسين في غَمْرة الفوضى السياسية التي أعقبت وفاة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

فقد كان خلفاء هذا السلطان العظيم من أصحاب العروش الصغيرة المتنافسة في بلاد الشام ومصر والجزيرة يشترون المماليك صغاراً في سن الطفولة من تجار الرقيق، ويعهدون بهم إلى من يعلمهم اللغة العربية ويلقنهم مبادئ الدين الإسلامي، ثم يُعهد بهم إلى من يتولَّى تدريبهم على فنون القتال والفروسية، بحيث يحققون قدراً عالياً من الكفاءة الحربية وبحيث يُضْمَنُ منهم قدرٌ عالٍ من الولاء الشخصي لسيدهم؛ وبهذا يكونون قوة وسنداً له في الصراعات والمنافسات الداخلية بين أبناء الأسرة الأيوبية.

وفي زمنٍ كان للقوة العسكرية الدور الأكبر في حسم مصائر الحكام والمحكومين، زادت أعداد المماليك في جيوش الحكام الأيوبيين من جهة، كما زادت أهميتهم في الحياة السياسية الأيوبية ودوائر الحكم في مصر والشام من جهة أخرى.

ويعتبر السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ ـ ٦٤٧/ ١٢٤٠ ـ ١٢٤٩م) المسؤول عن ازدياد نفوذ المماليك على النحو الذي أدَّى إلى سيطرتهم على مقاليد الحكم في خضم التطورات التي أعقبت

وفاته، ذلك أن هذا السلطان كان قد جرب الاعتماد على الجنود المرتزقة من الخوارزمية والأكراد، وعلّمته التجارب أن الاعتماد عليهم غير مأمون العاقبة. ويقول المؤرخ تقي الدين المقريزي في هذا الصدد:

«. . . والملك الصالح هو الذي أنشأ المماليك البحرية بديار مصر؛ وذلك أنه لما مرَّ به ما تقدم، في الليلة التي زال عنه ملكه، بتفرق الأمراء وغيرهم من العسكر عنه، حتى لم يثبت معه سوى مماليكه، رَعَى لهم ذلك. فلما استولى على مملكة مصر أكثر من شراء المماليك، وجعل معظمهم عساكره؛ وقبض على الأمراء الذين كانوا عند أبيه وأخيه، واعتقلهم وقطع أخبارهم، وأعطى مماليكه الإمريات، فصاروا بطانته والمحيطين بدهليزه، وسمَّاهم البحرية لسكناهم معه في قلعة الروضة على بحر النيل. . .»[1].

كان أولئك المماليك من عناصر عِرْقية مختلفة من الترك والمغول والتتار والصقالبة والإسبان والألمان والجراكسة. . . وغيرهم من العبيد البيض، بيد أن غالبيتهم في عصر دولة المماليك الأولى (البحرية) كانوا من بلاد القفجاق والقوقاز، على حين كان معظمهم في دولة المماليك الثانية من الشراكسة (الجراكسة).

---

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٣٣٩؛ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، (دار الشروق ١٩٩٤)، ص٧ـ٨.

وفي خضم الصراع ضد الصليبيين الذين ضمتهم الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة لويس التاسع[1] توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وقامت زوجته «شجر الدر» بإدارة شؤون الحكم والحرب بمساعدة كبار أمراء المماليك. وحين تولى «توران شاه» ابن الصالح نجم الدين أيوب عرش البلاد اصطدم بطموح شجر الدر من ناحية، وبقوة المماليك ونفوذهم المتصاعد من ناحية أخرى، وانتهى الصدام بمصرعه على نحو مأساوي مروع[2]. ثم ارتقت العرش «شجر الدر» لتكون أولى سلاطين المماليك في مصر والشام[3]، وهكذا قامت دولة سلاطين المماليك لتحكم قرابة ثلاثة قرون من الزمان (٦٤٨ ـ ٩٢٢هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)، ومن المهم أن نشير هنا إلى أن ظروف قيام سلطنة المماليك من جهة، والوضع القانوني لسلاطين المماليك من جهة ثانية، قد حدَّدت أبعاد النظرية السياسية لتلك الدولة.

وتفسير ذلك أن المفاهيم السياسية لدولة السلاطين المماليك

---

(١) أفضل دراسة مفصلة عن هذه الحملة كتبها أستاذنا المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة، انظر: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، (القاهرة ١٩٦١م)، ص١٤٥، ٢٠١.

(٢) يذكر المقريزي أن المعظَّم توران شاه مات «جريحاً حريقاً، غريقاً»، السلوك: ١/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٣) راجع الفصل الأول.

كانت نتاجاً لظروف قيام الدولة، كما كانت من نتائج الحقيقة القائلة بأن أولئك السلاطين المماليك لم يكونوا من سلالة حاكمة، كما أن أحداً لم ينتخبهم أو يفوض إليهم أمور الحكم، فضلاً عن أنهم قد «مسَّهم الرق» بحيث ينتفي عنهم شرط الحرية الذي يعتبر من أهم الشروط التي يجب أن تتوفر في الحاكم المسلم.

هذه المفاهيم السياسية التي حكمت دولة سلاطين المماليك منذ نشأتها يمكن بلْوَرتها في العقيدة السياسية التي جعلت أمراء المماليك يعتقدون أن عرش السلطنة حق لهم جميعاً بلا تفرقة، يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين. هذه المفاهيم السياسية تأكدت منذ البداية، وتركت بصماتها على التاريخ السياسي طوال وجود الدولة، إذ كان الطريق إلى العرش مفروشاً بدماء الخاسرين في الصراع.

فقد حكم خمسة من السلاطين قبل الظاهر بيبرس البندقداري، لقي ثلاثة منهم مصرعهم في مؤامرات سياسية، هم: السلطانة شجر الدر، وزوجها السلطان عز الدين أيبك، ثم السلطان المظفر سيف الدين قطز الذي خصَّصنا هذه الدراسة لسيرته. ونجا الاثنان الباقيان لكونهما طفلين لا يشكلان خطراً. لقد تأكد منذ البداية مبدأ «الحكم لمن غلب» أساساً لحكم سلاطين المماليك.

وقد أدَّى ذلك إلى اعتماد سلاطين المماليك في حكمهم على قوة

ذات جناحين: أحدهما يتمثل في القوة العسكرية للسلطان والتي يجسدها مماليكه، وهو ما أدَّى إلى ازدياد أعداد المماليك باطِّراد طوال عصر سلاطين المماليك. ويتمثل الجناح الثاني لقوة السلاطين في اعتمادهم على الواجهة الدينية التي حرصوا على التخفِّي وراءها طوال ذلك العصر[1]. ونتيجة لهذا كان لكل من السلطان والأمراء جيش من المماليك الذين يعتمد عليهم في تدعيم سلطته، أو في صراعاته ضد الآخرين.

وفي ظل هذا النظام كانت أقوى الروابط بين المماليك هي رابطة «الأستاذية»؛ وهي أشبه ما تكون بالعلاقة بين السيد الإقطاعي وأتباعه في النظام الإقطاعي الذي عرفته بعض مناطق أوروبا في العصور الوسطى، فهي علاقة بين السيد (الأستاذ) ومماليكه الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم وتدريبهم، كما كان يوليهم عناية كاملة. بل إن السيد كان يتناول طعامه مع مماليكه ويحرص على مجالستهم وزيادة أواصر العلاقة بينه وبينهم لكي يضمن ولاءهم.

---

(١) تمثلت هذه الواجهة في إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة زمن السلطان الظاهر بيبرس والنتائج السياسية والقانونية التي نجمت عنها؛ انظر: المقريزي، السلوك: ١/ ٤٥٣ ـ ٤٥٧؛ ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية في تاريخ الدولة التركية، ص٧٢ ـ ٨٠؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص٩٩ ـ ١١١؛ السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: ١/ ٨٧؛ تاريخ الخلفاء، ص٣٢٨ـ٣٢٩.

ونظراً للأهمية العسكرية والسياسية للمماليك كان السلطان يرسل المماليك الجدد الذين يشتريهم إلى الأطباء لفحصهم، وبعد الاطمئنان على سلامتهم البدنية يتم تسكينهم في المعسكرات (الطباق) حسب جنسيتهم[1]. وفي هذا الصدد يذكر المقريزي في خططه ما نصه «. . . هذه (الطباق) عمرها الملك الناصر محمد بن قلاون، وأسكنها المماليك السلطانية، وعَمَر حارة تختص بهم، وكانت الملوك تُعنى بها غاية العناية، حتى إن الملك المنصور قلاون كان يخرج في غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك، ويأمر بعرضه عليهم، ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جَوْدته ورداءته، فإن رأى فيه عيباً اشتد على المشرف والاستادار، ونهرهما، وحل بهما منه أي مكروه.

وكان يقول: كل الملوك عملوا شيئاً يذكرون به ما بين مال وعقار، وأنا عمرت أسواراً، وعملت حصوناً مانعة لي ولأولادي وللمسلمين، وهم المماليك. وكانت المماليك أبداً تقيم بهذه الطباق لا تبرح فيها. . .»[2].

هذا النص يكشف عن أحد أركان المؤسسة المملوكية والعلاقات

---

(١) سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٣)، ص١٤.

(٢) الخطط المقريزية، (طبعة دار صادر، بيروت د. ت): ٢/ ٢١٣.

داخلها، فالسلطان ـ وهو مملوك في الأصل ـ يدرك أهمية المماليك في حماية عرشه وأسرته، ويصفهم بأنهم مثل الأسوار والحصون المانعة، كما أنهم عمل يُخَلِّد اسمه بين الملوك والحكام. ومن ناحية أخرى يكشف هذا النص عن أسباب قوة رابطة «الأستاذية» التي ربطت برابطة الولاء الشخصي بين السيد ومماليكه؛ فواجبه أن يرعاهم ويغدق عليهم ويعتني بهم، وواجبهم أن يحموه وأن يصونوا عرشه ويدافعوا عن أسرته.

بعد ذلك يحدثنا المقريزي عن حياة المماليك بهذا الطباق (الثكنات العسكرية) فيقول: «وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة، أولها أنه إذا قدم بالمملوك تاجر عرضه على السلطان، ونزَّله في طبق جنسه، وسلَّمه لطواشي برسم الكتابة. فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم. وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمرين بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار.

وكان الرسم إذ ذاك أن لا تجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شب الواحد من المماليك علَّمه الفقيه شيئاً من الفقه، وأقرأه فيه مقدمة، فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه الغاية في معرفة ما يحتاج إليه، وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رَمْي النُّشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن

يحدثهم، أو يدنو منهم. فينقل (المملوك) حينئذ إلى الخدمة، وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء، فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه واشتد ساعده في رماية النشاب، وحَسُن لعبه بالرمح، ومَرِن على ركوب الخيل. ومنهم من يصير في رتبة فقيه عارف، أو أديب شاعر، وحاسب ماهر.

هذا ولهم أزمَّة من الخدام وأكابر من رؤوس النوب يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافي، ويؤاخذونه أشد المؤاخذة، ويناقشونه على حركاته وسكناته، فإن عثر أحد من مؤدبيه الذي يعلمه القرآن، أو الطوشي الذي هو مُسَلَّم إليه، أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنباً أو أخلَّ برسم، أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا، قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه...»[١].

هذا النص الذي أورده تقي الدين المقريزي يبين مراحل تربية المماليك وتدريبهم في الفترة الباكرة من عمر دولة سلاطين المماليك، وهو نظام يتسم بالصرامة والدقة الشديدة. إذ كان المماليك يُجلبون صغاراً حتى يمكن تربيتهم وتدريبهم بسهولة[٢]، وكان توزيعهم في

---

(١) الخطط المقريزية: ٢/ ٢١٣ـ٢١٤.
(٢) كان هذا النظام سارياً حتى نهاية دولة المماليك البحرية وبداية عصر الجراكسة=

الثكنات العسكرية بالقلعة يتم حسب جنسياتهم. ثم بعد ذلك يتولى الفقهاء تعليمهم أصول الدين الإسلامي ومبادئ اللغة العربية وأركان الشريعة، حتى إذا ما تخطَّى الواحد منهم سن الطفولة بدأ تدريباته العسكرية على النحو الذي أوضحه المقريزي وغيره[1]. فإذا ما أتم المملوك تدريبه صار من الفرسان، ويتم منحه إقطاعاً من الأرض الزراعية في احتفال كبير بموكب سلطاني يطوف شوارع القاهرة، ثم يقوم الفارس بأداء يمين الولاء لسيده[2].

= بسلطنة الظاهر برقوق في بدايات القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وبدأ جلب المماليك من الرجال... «... الذين كانوا في بلادهم ما بين ملَّاح سفينة، ووقَّاد في تنور خباز، ومحول ماء في غيط أشجار ونحو ذلك. واستقر رأي الناصر فرج بن برقوق على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم. بل يُتْركون وشأنهم، فبُدلِّت الأرض غير الأرض، وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسَّهم قدراً، وأشحهم نفساً، وأجهلهم بأمر الدنيا، وأكثر إعراضاً عن الدين. ما فيهم إلا من هو أزنَى من قرد، وألص من فأرة، وأفسد من ذئب...» الخطط: ٢/ ٢١٤.

وعن تأثير ذلك على مصير دولة سلاطين المماليك؛ انظر: قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص١٧ وما بعدها.

(١) انظر ما كتبه ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٨/ ٢٣٨؛ ٩/ ٧٣ـ ٩٨ حول سلطة الطواشية على المماليك في الطباق ومهابتهم ـ قارن: سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٤ ـ ١٥.

(٢) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٤٦؛ عاشور، المجتمع =

على أية حال، فإن هذا النظام الصارم في تربية المماليك نتجت عنه نتيجتان غاية في الأهمية من حيث تأثيرهما على طبيعة الكيان السياسي لدولة سلاطين المماليك:

أولاهما: أن الجمع بين التربية الدينية والتدريب العسكري جعلا المماليك في الفترة الأولى من ذلك العصر يتميزون بالحماسة والغَيْرة على البلاد والمقدسات الإسلامية، وهو الأمر الذي تجلّى واضحاً في موقف السلطان المظفر سيف الدين قطز ورفاقه من كبار أمراء المماليك من الغزو والتهديد التتري ضد العالم الإسلامي.

والنتيجة الثانية تمثلت في أن رابطة الخشداشية (أي الزمالة) التي كانت تربط بين المماليك كانت من أقوى الروابط القائمة على الولاء الشخصي في الدولة. وتفسير ذلك أن هؤلاء الذين جُلبوا أطفالاً، ثم عُزلوا عن المجتمع في معسكرات صارمة القوانين، وعاشوا حياتهم الباكرة حتى سن الشباب سوياً، لم يكونوا يجدون الأمان والطمأنينة سوى مع بعضهم البعض. ولهذا تميزت الفرق المملوكية بالطائفية القائمة على الولاء الشخصي. فالمماليك كانوا عادة ينسبون إلى السلطان الذي اشتراهم؛ فالمماليك «الظاهرية» مثلاً نسبة إلى الظاهر بيبرس، و«المعزية» نسبة إلى المعز أيبك، و«الناصرية» نسبة إلى الناصر

= المصري، ص١٩؛ قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص١٤.

محمد بن قلاون. . . وهكذا. ومن ناحية أخرى أدَّى هذا إلى زيادة نسبة الصراعات الدموية في سبيل الوصول إلى الحكم، وكان قطز ضحية انتمائه للمماليك المعزية من جهة، وانتقام بيبرس لمصرع فارس الدين أقطاي، والهوان الذي حل بالمماليك البحرية الصالحية من جهة أخرى.

بيد أن أهم نتائج هذه التربية المملوكية تجسدت في الإحساس المتبادل بين المماليك والرعية في مصر والشام بأن المماليك أغراب يحكمون البلاد على أساس من التفويض الشرعي[1]. وانعكس هذا التناقض على العلاقة بين الجانبين، فقد تركزت وظائف الحكم والإدارة العليا في أيدي المماليك، كما امتلكوا زمام السلطة السياسية، مما جعلهم يتصرفون باعتبارهم أقلية عسكرية تحكم على أساس من القوة والغلبة، وتنأى بنفسها عن المشاركة في حياة الرعية سوى من خلال المواكب السلطانية والأعياد والاحتفالات الدينية والعامة.

كما أن المصريين من جهة أخرى، لم يروا في المماليك سوى طائفة من الغرباء الذين يحكمونهم بتفويض من الخليفة العباسي في

---

(١) انظر نص وثيقة تفويض الخليفة العباسي للسلطان الظاهر بيبرس في: المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك: ١/ ٤٥٣ ـ ٤٥٧؛ انظر المناقشة الموسعة للموضوع: قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي، الأيوبيون والمماليك ـ التاريخ السياسي والعسكري (عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٥م)، ص١٥٠ ـ ١٥٣.

القاهرة، ويغلب عليَّ الظن بأن مشاعر الرعية في مصر وبلاد الشام تجاه المماليك كانت مزيجاً من الكراهية السياسية، والعداء الاجتماعي، والولاء الديني بفضل الواجهة الدينية التي جعلت من المماليك حكاماً شرعيين مفوضين من الخليفة الذي كان دوره قاصراً على إسباغ الشرعية على حكم سلاطين المماليك، ولم يكن له من الخلافة سوى اللقب[1].

واستمرت جموع المماليك الذين كان تجار الرقيق يجلبونهم من شتى بقاع الدنيا تغذِّي المؤسسة المملوكية بالعناصر البشرية من ناحية، وتغذِّي المشاعر الانعزالية في نفوس أبناء هذه المؤسسة من ناحية أخرى. وكانت هذه الطبقة تقوِّي نفسها دائماً بما يجلبه تجار الرقيق إلى البلاد. وعلى أية حال، كان لفرسان المماليك ـ وحدهم ـ حق الحكم في مصر وبلاد الشام بناء على أنهم تحملوا عبء الدفاع عن البلاد ضد الأخطار الخارجية، كما تولوا حماية عرش السلطان القائم ضد المطامع الداخلية، وقد استأثروا بالمراتب العليا في الجيش والإدارة.

وكان السلاطين يرون في المماليك حصونهم وأسوارهم المانعة على حد تعبير السلطان المنصور قلاون في النص الذي نقلناه عن المقريزي. ولذلك بلغت أعداد المماليك السلطانية أيام هذه السلطان

---

(١) ابن الصيرفي، إنباء الهصر بأنباء العصر، (تحقيق الدكتور حسن حبشي، القاهرة ١٩٧٠م)، ص١١٥.

(٦٧٨ ـ ٦٨٩هـ/ ١٢٧٩ ـ ١٢٩٠م) ستة آلاف وسبعمئة مملوك، وأراد ابنه الأشرف خليل أن يكمل عددهم عشرة آلاف، كما اشتهر السلطان الناصر محمد بن قلاون بحبه لشراء المماليك «. . . من بلاد أزبك وبلاد توريز وبلاد الروم وبغداد. وبعث في طلبهم وبذل الرغائب للتجار في حملهم إليه، ودفع فيهم الأموال العظيمة، ثم أفاض على من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامة الأصناف دفعة واحدة في يوم واحد. . .»[١] وكان من الممكن أن تصل مشتروات السلطان في عصر المماليك البحرية إلى حوالي ثمانمئة مملوك، على حين أن عدد المماليك الذين كان يشتريهم السلاطين بعد النصف الثاني من القرن الثامن الهجري (ق١٥م) لم تزد عن مئتين أو ثلاثمئة مملوك[٢] بسبب التدهور العام الذي أصاب دولة المماليك آنذاك.

كان مماليك السلطان يعسكرون بالقاهرة حيث تكون القوة الرئيسية في الجيش المملوكي، كما كانت أعداد أولئك المماليك السلطانية تتزايد حين يُضم إليهم مماليك السلاطين السابقين، أو مماليك الأمراء الذين يغضب عليهم السلطان.

أما العلاقة بين السلطان ومماليكه الذين اشتراهم وأشرف على

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٢١٤.

(٢) Ashtor E. ,Asocial and Economic History of the Near East in the Middle Ages, (Collins, London 1976), P. 282.

تربيتهم فعادة ما تكون أقوى من العلاقة بينه وبين غيرهم من المماليك. ولأن المماليك السلطانية كانت بمثابة الحرس السلطاني الخاص، كان السلاطين يولونهم عناية فائقة في التعليم والتدريب على نحو ما أوضحنا. كذلك كان السلاطين يختارون لمماليكهم أعلى الوظائف قدراً وأكبرها إقطاعاً، سواء في دوائر البلاط أو في إدارات الجهاز الحكومي. وفي البداية كان السلطان يقرر راتباً نقدياً وعينياً (من اللحوم والتوابل والخبز والأعلاف والزيت وغيرها) لكل مملوك من مماليكه في كل شهر. وبعد أن يدخل الفارسي المملوكي في زمرة الأمراء أصحاب الإقطاعات يمنحه السلطان إقطاعاً من الأرض الزراعية تزداد مساحته زيادة طردية مع صعود الأمير المملوكي وترقِّيه في سُلَّم الرتب العسكرية المملوكية[١].

أما الأمراء الكبار، من ولاة الأقاليم وأصحاب الوظائف الكبرى، فكانت لهم جيوش صغيرة من المماليك تتراوح أعدادهم ما بين ثلاثمئة مملوك وثمانمئة مملوك، وتلك الجيوش كانت تشكل القسم الثاني من الجيش المملوكي العام، ولكنها غالباً ما كانت تعسكر خارج القاهرة. وكان القسم الثالث من الجيش يتألف من أجناد الحلقة[٢].

---

(١) قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص١٤.
(٢) هم المقاتلون الأحرار من أبناء المماليك الذين عرفوا باسم «أولاد الناس» في=

وقد احتكر الأمراء المماليك الرتب العسكرية ووظائف الإدارة العليا، فكانت أعلى درجات الأمراء العسكرية «أمير مئة مقدم ألف»، ثم يليه أمير طبلخاناه (أي يدق على أبوابه ثلاثة طبول ونفيران)، وبعد ذلك رتبة أمير عشرة، ثم رتبة أمير خمسة. وفي ذلك يقول القلقشندي:

«واعلم أن كل أمير من أمراء المئين أو الطبلخانات سلطان مختصر في غالب أحواله... وتوصف البيوت في دواوين الأمراء بالكريمة، فيقال: البيوت الكريمة، كما يقال في بيوت السلطان: البيوت الشريفة»(١).

وتفسير هذا النص أن الوضع السياسي للأمراء المماليك كان ممتازاً بحيث كان كل منهم يشبه السلطان من حيث ما يتمتع به من مزايا، وتمثَّل الفارق الوحيد بين السلطان والأمراء في حجم الامتيازات من ناحية، وفي خضوع الأمراء أنفسهم للسلطان من ناحية أخرى.

وكان طبيعياً أن تكون وظائف الدولة حكراً على أمراء المماليك. وهنا ينبغي أن نشير إلى حقيقة أن نظام الحكم المملوكي في مصر وبلاد

= مصطلح ذلك العصر، ومن البدو والتركمان وبعض فئات المصريين. انظر: ابن الصيرفي، إنباء الهصر، صفحات ٢٣، ٢٤، ٣٣، ٣٤، ٤٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور: ٣/ ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٣٧.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٤/ ٦١ ـ ٦٣.

الشام كان نظاماً طبقياً في علاقاته واتجاهاته، فقد قسم المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون المجتمع في مصر في عصر سلاطين المماليك إلى «سلطان ورعية»[1] وهو ما يصدق في تقديرنا على بلاد الشام أيضاً. والراجح أن ابن خلدون يقصد «بالسلطان» الجهاز المملوكي الحاكم والفئات التي تدور في فلكه من المصريين، أما «الرعية» التي قصدها ابن خلدون فهم المصريون بجميع فئاتهم وطوائفهم. ولم تكن العلاقة بين السلطان والرعية قائمة على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة، لأن ذلك كان أبعد ما يكون عن مفاهيم أولئك الحكام المجلوبين عبيداً في طفولتهم.

وفي تصورنا أن المجتمع المصري والمجتمع الشامي في عصر سلاطين المماليك كانا مجتمعين يقومان على بناء طبقي حاد، فثمة طبقة من الحكام العسكريين لهم كافة الحقوق والامتيازات، ولهم حق الإدارة والحكم، فضلاً عن أن الموارد العامة (من الأراضي الزراعية والمراعي والمصايد والغابات والأحراش والمسطَّحات المائية) كانت بحوزتهم بحكم القوانين الإقطاعية التي نظمت العلاقات داخل الكيان الإقطاعي العسكري الذي جسدته دولة سلاطين المماليك.

وقد ذكر القلقشندي الوظائف الكبرى في دولة سلاطين المماليك

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص١٨٣.

تحت عنوان دالٍّ، وقسَّمهم إلى أربعة أقسام؛ إذ قال تحت عنوان «في ذكر أعيان المملكة وأرباب المناصب الذين بهم انتظام المملكة وقيام الملك» إنهم أرباب السيوف (أي العسكريون من فرسان المماليك)، وهم الأمراء الذين قسمهم إلى[1]:

١ ـ أمراء المئين مقدَّمو الألوف، وعدة كل منهم مئة فارس؛ أي أن كلاًّ منهم يحق له أن يكون جيشاً من مماليكه في حدود مئة فارس من الفرسان ثقيلي العدَّة، وربما زاد على ذلك عشرة أو عشرين فارساً. ومن ناحية أخرى يكون له حق قيادة ألف فارس ـ من غير مماليكه ـ ممن هم دونه من الأمراء على نحو ما يذكر العمري[2]. وأصحاب هذه الرتبة من الأمراء هم أعلى أمراء المماليك قدراً، ومنهم يكون أصحاب الوظائف الكبرى ونواب السلطان.

٢ ـ أمراء الطبلخاناه[3] وعدة كل منهم في الغالب أربعين فارساً.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى: ٤/ ١٤ ـ ٣٧.

(٢) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ـ ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، (تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٥) ص٢٧ ـ ٢٨.

(٣) الطبلخاناه: كلمة فارسية من جزئين؛ طبل وخاناه، ومعناه بيت الطبل، ويقصد به الطبول والأبواق التي تدق على أبواب الأمراء ذوي الرتب العالية. ويتولى أمرها أمير عشرة يكون مسؤولاً عنها في المخازن وفي السفر =

ويذكر العمري في «مسالك الأبصار» أنه ربما كان من حق أمير الطبلخاناه أن يزيد عدد فرسانه إلى سبعين أو ثمانين فارساً[1]، ولكن هذه الرتبة لا تُعطى أبداً لأقل من أربعين فارساً. ومن هذه الطائفة من الأمراء تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشاف بالأقاليم، وأكابر الولاة، حسبما يقول القلقشندي.

٣ ـ أمراء العشرات، ويكون لكل منهم إمرة عشرة من فرسان المماليك. وربما كان للواحد منهم عشرون فارساً، ولكنه يظل من أمراء العشرات. ومن هذه الفئة يكون صغار الولاة ومن كان مثلهم من أرباب الوظائف الصغرى.

٤ ـ أمراء الخمسات، وكانوا قلة خصوصاً في مصر، وربما كان أكثرهم من أولاد الأمراء الذين توفوا، ومُنح الأبناء هذه الرتبة رعاية لآبائهم.

وهناك نص هام للعمري[2] عن الإقطاعات التي كانت تمنح

= والحرب، وتحت يديه عدد من ضاربي الطبول، ونافخي النفير (البوق)، وضاربي الصنوج النحاس وغيرهم. ويكون من حق أمراء المئين والأمراء الذين يحق لهم تكوين فرقة من أربعين فارساً أن يكون لديهم طبلخاناه؛ انظر القلقشندي، صبح الأعشى: ٤/ ١٣.

(١) العمري، مسالك الأبصار، ص٢٨.

(٢) مسالك الأبصار، ص ٢٨.

لهؤلاء الأمراء من أرباب السيوف لقاء قيامهم بواجباتهم الوظيفية، يقول العمري: «ويبلغ بمصر إقطاع بعض أكابر الأمراء المقربين من السلطان مئتي ألف دينار حبشية، وربما زادت على ذلك. وأما غيرهم فدون ذلك ودون دونه ودون دونه إلى ثمانين ألف دينار وحولها.

وأما الطبلخانات فتبلغ الثلاثين ألف دينار وما يزيد، وينقص عليها إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار. أما العشرات فنهايتها سبعة آلاف دينار إلى ما دون ذلك. وأما إقطاعات جند الحلقة فمنه ما يبلغ ألف وخمسمئة دينار. ومن هذا المقدار وما حوله إقطاعات أعيان الحلقة المقدَّمين عليهم، ثم ما دون ذلك إلى مئتين وخمسين ديناراً. وأما إقطاعات جند الأمراء فإلى ما يراه الأمير من زيادة بينهم ونقص.

«وأما إقطاعات الشام فلا تقارب هذا المقدار، بل تكون على الثلثين منها، خلا ما ذكرناه عن بعض أكابر أمراء المئين المقربين. . .»[1].

هذا النص الهام الذي نقلناه عن العمري، بالإضافة إلى ما ذكرته المصادر التاريخية الأخرى[2]، يوضح بجلاء أن المماليك، بوصفهم

---

(١) مسالك الأبصار، ص٢٩.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى: ٤/ ٥٠؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م): ٢/ ١٣٠ـ ١٣٤؛ المقريزي، الخطط: ٢/ ٢١٦.

الطبقة العسكرية الحاكمة، قد استأثروا بوظائف القيادة في الجيش، كما اختصوا أنفسهم بوظائف الإدارة العليا والوسطى والصغرى. ولما كانت الدولة قائمة على أساس من البناء الإقطاعي العسكري؛ فقد تمتع أمراء المماليك وفرسانهم بكل ما يرتبط بالوظائف التي تولوها من مميزات مالية وعينية على النحو الذي اتفقت عليه مصادر عصر سلاطين المماليك.

وفي فَلَك هذه الطبقة العسكرية الحاكمة كان يدور بعض أهالي البلاد من المصريين والشوام الذين ارتبطوا بالمماليك بحكم خبراتهم المالية والإدارية المتوارثة. أولئك هم «أرباب الأقلام» من أصحاب الوظائف الديوانية الإدارية والمالية والقضائية. ولما كانت العلوم الدينية أساس التعليم في تلك العصور، فقد كان أولئك النفر من المصريين والشوام من الفقهاء والعلماء على نحو خاص، وهو ما جعل بعض مصادر عصر سلاطين المماليك تطلق عليهم مصطلح «المتعمِّمون» أو «أهل العمامة»[(١)].

والواقع أن أبناء هذه الطائفة قد لعبوا دوراً هاماً في مساندة سلاطين المماليك، وحرصوا بشكل عام على تأكيد ولائهم للسلطان المملوكي الحاكم، إذ كان من المعتاد آنذاك أن يصعد كبار القضاة والفقهاء مع بداية كل شهر لتهنئة السلطان بالشهر الجديد[(٢)]. وتشهد تلك الطائفة الكبيرة

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى: ٤/ ٤١ ـ ٤٢.
(٢) ابن الصيرفي، إنباء الهصر بأنباء العصر، ص٨ ـ ص٩؛ ابن إياس، بدائع =

من الفتاوى التي وصلتنا من عصر سلاطين المماليك على أن السلاطين اعتمدوا كثيراً على هذه الفتاوى في كافة تصرفاتهم السياسية والاقتصادية والمالية والإدارية[1].

وهنا ينبغي أن نشير إلى أن سلاطين المماليك كانوا يقربون «أهل العمامة» إليهم ضمن سياسة الاهتمام بالمظاهر الدينية التي حرصوا عليها. وسواء كان «أهل العمامة» من الفقهاء والقضاة يعملون في الوظائف التي عيَّنهم السلاطين فيها، أو كانوا يقومون بالتدريس في مختلف المدارس المنتشرة في أرجاء البلاد؛ فقد كان عليهم أن يتعاونوا مع المماليك. وكان كبار الفقهاء والقضاة يتقاضون مرتبات نقدية وعينية من السلطان، ونعموا بمظاهر الحياة الناعمة المترفة، كما كانوا يترددون على مجالس السلاطين والأمراء. أما صغار أهل العمامة فكانوا من ضمن الرعية التي حدثنا عنها عبد الرحمن بن خلدون.

هذه هي الطبقة الحاكمة في عصر سلاطين المماليك، والفئات التي كانت تعيش في جوارها وتدور في فلكها من كبار الموظفين في

= الزهور: ٣/ ٢٤.

(١) مجموعة وثائق دير سانت كاترين أرقام ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠؛ انظر أيضاً: المقريزي، السلوك: ٤/ ١١٨٩ ـ ١١٩٠؛ ابن تغري بردي، النجوم: ١٥/ ٣٣٨.

الجهاز الحاكم. أما الرعية فكانت تشمل بقية فئات الناس في مصر والشام أثناء تلك الفترة[1].

وإذا كنا قد عرضنا في هذا الفصل للمؤسسة المملوكية، من حيث تربية المماليك وتدريبهم والعلاقات بين الزملاء في رابطة الزمالة أو «الخشداشية»، ثم العلاقة بين السيد ومماليكه داخل إطار رابطة «الأستاذية»، وانتقلنا بعد ذلك لمناقشة مسألة الرتب العسكرية ووظائف الإدارة العليا وامتيازاتها؛ فإن هذا كله كان بقصد كشف الإطار الذي تدرَّج فيه سيف الدين قطز من مرتبة المملوك إلى عرش السلطان. وفي تصوري أن هذا الفصل يمكن أن يساعدنا على فهم الجو العام الذي تحرك فيه قطز مملوكاً، وفارساً، وأميراً، ثم سلطاناً.

وهذا هو موضوع الفصل التالي.

* * *

---

(١) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغُمر بأنباء العمر: ٢/ ٢٥٩، (تحقيق الدكتور حسن حبشي).

الفصل الثالث

قطز: من المملوك إلى السلطان

الفَصل الثالث

قطز: من المملوك إلى السلطان

أصل قطز، العلاقة مع عز الدين أيبك وشجر الدر، الحرب بين الزوجين الوصي على العرش، سيف الدين قطز السلطان

مثل غيره من المماليك الذين ارتقوا عرش السلطة، تبدو السيرة الباكرة لسيف الدين قطز غامضة ضبابية. وتدور روايات مختلفة حول أصل ذلك المملوك الذي انتقل من إسار الرق إلى عرش سلطنة المماليك في مصر والشام، والذي خرج من صفوف العبيد المعروضين في سوق النخاسة ليقود صفوف المقاتلين ضد التتار في عين جالوت، ويُلحق بهم هزيمة أطفأت نارهم التي كانت قد أحرقت مشرق العالم الإسلامي، وأكل لهيبها خلافة المسلمين في بغداد، ودمَّرها شر تدمير. وربما يكون مناسباً أن نعرض لروايات مختلف المؤرخين حول أصول المملوك قطز.

يقول المؤرخ ابن أيبك الدواداري[1]: «... لما كان قطز في رقٍّ

---

(١) ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص٣٩ ـ ٤٠.

ابن الزعيم بدمشق بالقصاعين اتفق أن أستاذه غضب عليه يوماً لشيء جرى منه فلطمه على وجهه، ولعن والديه وأباه وجده. ثم إنه جلس يبكي وينتحب، وزاد في بكائه عن حدِّ القياس، وحضر الطعام فامتنع عن الأكل، وظل طول اليوم يبكي.

وقال ابن أبي الفوارس الجزري صاحب هذه الرواية: ثم إن أستاذه ركب إليَّ وضيَّفته، وكان قطز عنده عزيزاً بخلاف غيره من مماليكه، فأوصى عليه الحاج علي الفرَّاش ـ وكان الحاج علي كبيراً في بيت ابن الزعيم ـ فقال: «يا حاج استوصي بهذا المملوك، ولاطفه، وخذ بخاطره، وأطعمه، واسقيه» قال الحاج علي: فأتيته وهو يبكي بعد ركوب أستاذه. فقلت له: «ما هذا البكاء العظيم، من لطشة تعمل هذه العمايل؟ فلو وقع فيك جرح سيف أو نشاب كيف كنت تصنع؟». فقال: «والله يا حاج ما بكائي وغيظي من لطشة، فإن السيوف والله ما تعمل فيّ، وإنما غيظي على لعنته لوالدي وأبي وجدي، وهم والله أخير من آبائه وجدوده»، فقلت له: «ومن هو أبوك أنت، ومن جدك، وأنت مملوك تركي كافر ابن كافر»، فقال: «لا تقل كذا يا حاج، والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم ابن مسلم إلى عشرة جدود. أنا محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه السلجوقي، ولا بدَّ ما أملك مصر وأكسر التتار».

قال الحاج علي: فضحكت من قوله وطايبته. وتقلبت الأحوال إلى أن ملك مصر وكسر التتار، ودخل قطز دمشق وطلبني، فأحضرني

وأعطاني خمسمئة دينار، ورتب لي راتباً جيداً، رحمه الله . . . ».

هذه هي الرواية الأولى عن أصل قطز؛ وهي رواية أوردها مؤرخ من أصل مملوكي عارف بالكثير من خبايا المماليك. وعلى الرغم من النبوءة التي تحملها الرواية (وهي نبوءة كتبت بأثر رجعي أي بعد الأحداث وليس قبلها) فإن الرواية تنسب قطز إلى أسرة إسلامية حاكمة هي أسرة السلطان جلال الدين خوارزم شاه الذي استطاع التصدِّي للمغول، واسترد منهم مدن «قُم» و«قاشان» و«همدان» في بلاد فارس. وكان هو الوحيد القادر على التصدِّي للتتار آنذاك، لولا أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله (ت٦٢٢هـ) استعان بالتتار ضده، وارتكب ذلك الخطأ القاتل الذي يرتكبه عادة الحكام الذين تعميهم أحقادهم وأطماعهم الصغيرة عن رؤية الواقع السياسي. فقد قضى التتار سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م على مملكة جلال الدين خوارزم شاه التي كانت تقع في إقليم كرمان الحالي في جنوب جمهورية إيران الإسلامية، واختفى السلطان هرباً من سيوف التتار[١].

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ١٨٥، ٢٠٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٤ (تحقيق د. حسنين ربيع ١٩٧٢م)، ص٣١٤، ٣٢٩ حيث ذكر أن التتار قتلوا جلال الدين خوارزم شاه؛ انظر أيضاً:

Claude Cahen, the Mangols and the Near East, in Setton (ed.), A History of the Crusades vol. II, PP. 615 - 716.

على أية حال، فإن المؤرخ أبا المحاسن يوسف بن تَغْري بَرْدي كرّر الرواية نفسها نقلاً عن المصدر نفسه[1]، كما ذكر رواية أخرى هذا نصها: « . . . قال ابن الجزري في تاريخه: حدثني أبي، قال حدثني أبو بكر بن الدُريهم الإسعردي والزكي إبراهيم أستاذ الفارس أقطاي قالا: كنا عند سيف قطز لما تسلطن أستاذه المعز أيبك التركماني، فأمرنا قطز بالقعود، ثم أمر المنجم فضرب الرمل، ثم قال له قطز: اضرب لمن يملك بعد أستاذي المعز أيبك، ومن يكسر التتار، فضرب وبقي زماناً يحسب، فقال: يطلع معي خمسُ حروف بلا نقط. فقال له قطز: لم لا تقول محمود بن ممدود، فقال: يا خوند لا ينفع غير هذا الاسم، فقال: أنا هو، أنا محمود بن ممدود، وأنا أكسر التتار وآخذ بثأر خالي خوارزم شاه، فتعجبنا من كلامه، وقلنا: يا خوند يكون هذا إن شاء الله، فقال: اكتموا ذلك، وأعطى المنجِّم ثلاثمئة درهم»[2].

هذه هي الرواية الثانية في اتجاه تأكيد نسبة قطز إلى بيت خوارزم شاه في بلاد فارس. بيد أن المؤرخ نفسه يورد رواية تحمل النبوءة بسلطنة بيبرس، ولكنها لا تشير إلى انتسابه إلى بيت مَلَكي. ومؤداها أن أحد أمراء المماليك واسمه «حسام الدين البركة خان» ذكر أن قطز كان مملوكاً لأحد

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٨٤ ـ ٨٥.
(٢) ابن تغري بردي: ٧/ ٨٥ ـ ٨٦.

الأمراء زمن السلطان الكامل الأيوبي، وكان خشداشه (زميله) حسام الدين هذا الذي تنسب الرواية إليه أنه قال: «. . . والله هذا قطز خشداشي، كنت أنا وإياه عند الهيجاوي من أمراء مصر ونحن صبيان، وكان عليه قَمْل كثير، فكنت أسرح رأسه على أنني كلما أخذت منه قملة أخذت منه فلساً أو صفعته، ثم قلت في غضون ذلك: والله ما أشتهي إلا أن يرزقني الله إمرة خمسين فارساً، فقال لي: طيّب قلبك، أنا أعطيك إمرة خمسين فارساً، فصفعته وقلت: أنت تعطيني إمرة خمسين! قال: نعم، فصفعته، فقال لي: وألك علة! إيش يلزم لك إلا إمرة خمسين فارساً!! أنا والله أعطيك، قلت: ويلك كيف تعطيني؟ قال: أنا أملك الديار المصرية وأكسر التتار وأعطيك الذي طلبت، قلت: ويلك أنت مجنون! أنت بقملك تملك الديار المصرية وتكسر التتار؟ قال: نعم، رأيت النبي ﷺ في المنام وقال لي: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار، وقول النبي ﷺ حق لا شك فيه، قال: فسكتُّ وكنت أعرف منه الصدق في حديثه وعدم الكذب. . .»[1].

وثَمَّة رواية أخرى تحمل نبوءة بتولِّي قطز عرش مصر نقلها ابن تَغْري بَرْدي عن القطب اليونيني في تاريخه الذي ذيَّله على كتاب مرآة

---

(١) المصدر السابق نفسه: ٧/ ٨٧ ـ ٨٨؛ قارن: ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٤١ ـ ٤٢.

الزمان، نصُّها: «حكى لي عز الدين محمد بن أبي الهيجاء ما معناه: أن سيف الدين بُلغاق حدثه أن الأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي حكى لي قال: كنت أنا والملك المظفر قطز والملك الظاهر بيبرس ـ رحمهما الله تعالى ـ في حال الصبا كثيراً ما نكون مجتمعين في ركوبنا وغير ذلك، فاتفق أن رأينا منجماً في بعض الطريق بالديار المصرية، فقال له الملك المظفر قطز: أبصر نجمي، فضرب بالرمل وحسب وقال: أنت تملك هذه البلاد وتكسر التتار، فشرعنا نهزأ به، ثم قال له الملك الظاهر بيبرس: أبصر نجمي، فقال: وأنت أيضاً تملك الديار المصرية وغيرها، تزايد استهزاؤنا به، ثم قالا لي: لا بدَّ أن تبصر نجمك، فقلت له: أبصر نجمي، فحسب وقال: أنت تخلص لك إمرة مئة فارس، يعطيك هذا، وأشار إلى الملك الظاهر، فاتفق أن وقع الأمر كما قال، ولم يخرم منه شيء، وهذا من عجب الاتفاق»[١].

هذه الرواية نفسها وردت عند ابن أيبك الدواداري[٢]، إلا أنه زاد عليها نبوءة قتل قطز على يد بيبرس.

نحن إذن، أمام روايات تتحدث عن أصل «المملوك» قطز، وأخرى تتحدث عن النبوءة التي تنبأت باعتلائه العرش. هذا النمط من

(١) النجوم الزاهرة: ٧/ ٨٩.
(٢) ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٤٣.

«النبوءة بأثر رجعي» متواتر في مصادر عصر سلاطين المماليك بالنسبة لأولئك السلاطين الذين أنجزوا أعمالاً كبرى في خدمة الأمة الإسلامية مثل سيف الدين قطز والظاهر بيبرس. هذه النبوءة، فيما أزعم، أقرب إلى الأدب الشعبي منها إلى التاريخ؛ فالناظر في السيرة الشعبية للظاهر بيبرس سيجد النبوءة تتكرر بأشكال مختلفة، تبشر بأن هذا الصبي سيكون صاحب عرش مصر وبلاد الشام.

بيد أن ما يهمنا هنا هو التأكيد على أن «المملوك» قطز هذا كان من الخوارزمية، وتروي المصادر التاريخية أن اسمه الأصلي «محمود بن ممدود»، وأنه ابن أخت جلال الدين خوارزم شاه الذي قضى التتار على مملكته، وكان «قطز» من بين الأطفال الذين حملهم التتار إلى دمشق وباعوهم إلى تجار الرقيق. ومضت سيرة حياته داخل الإطار العام لحياة المماليك كما أوضحناها في الفصل السابق. ومعنى كلمة «قطز» الكلب الشرس، وهي كلمة مغولية أطلقها عليه من اختطفوه وباعوه، وربما يكون تجار الرقيق هم الذين أعطوه هذا الاسم.

هذه هي بداية المملوك، ويحسن بنا أن نتابع سيرته حتى جلوسه على عرش السلطان، يتضح من رواية مصادرنا التاريخية أن قطز كان مملوكاً في دمشق ضمن مماليك ابن الزعيم، كما يتضح أنه مرَّ بالمراحل التي كان يمر بها أي مملوك في تلك الفترة الباكرة من تاريخ دولة سلاطين المماليك. وقد ترقَّى في الخدمة حتى صار أكبر مماليك الملك المعز

أيبك التركماني[1]. وربما يكون أول ظهور له على صفحات التاريخ ما ذكرته المصادر عن اشتراكه في قتل فارس الدين أقطاي الذي كان عز الدين أيبك التركماني قد أعد المؤامرة للتخلص منه[2]. وبعد ذلك بدأ قطز يشق طريقه على الطريقة المملوكية صوب العرش الذي جلس عليه سيده عز الدين أيبك.

كان مقتل فارس الدين أقطاي بمثابة علامة البداية لمسيرة قطز نحو عرش السلطنة من ناحية، كما كان إيذاناً بانقسام المماليك إلى حزبين متناوئين من ناحية أخرى. هذان الحزبان هما المماليك البحرية

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٨٤.

(٢) تخلص المعز أيبك من غريمه فارس الدين أقطاي الذي كان زعيماً لمماليك البحرية، وقد بالغ في احتقار أيبك والاستهانة به، بحيث كان يناديه باسمه مجرداً من أي ألقاب. ومن ناحية أخرى أنشأ فرقة خاصة من المماليك هم «المماليك المعزية»، وكان قطز كبيرهم، لمواجهة نفوذ المماليك البحرية. وكشف أقطاي عن رعونة شديدة، وسعى إلى الزواج من إحدى أميرات البيت الأيوبي. وفي يوم الأربعاء ٣ شعبان سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م طلب أيبك من أقطاي الحضور إلى القلعة لكي يستشيره في بعض الأمور؛ وفي قاعة العواميد، كبرى قاعات قلعة الجبل، تم اغتيال فارس الدين أقطاي على يد كل من قطز، وبهادر، وسنجر الغتمي «... فهبروه بالسيوف حتى مات...». المقريزي، السلوك: ج١/ ٣٩٠.

والمماليك المعزية، مما عرّض مصير الدولة الناشئة إلى خطر شديد[1]. فقد هرب زعماء البحرية طلباً لحماية أمراء الأيوبيين وملوكهم في بلاد الشام وحماية سلاجقة الروم، وأخذ المماليك الهاربون يحرضون ملوك البيت الأيوبي على غزو مصر.

وكانت الخصومة، التي تحولت إلى عداوة قاتلة بين المعز أيبك وزوجته شجر الدر، بمثابة الفرصة التي سطع فيها نجم قطز، وعلى الرغم من الدماء التي أريقت فإنها فتحت طريق العرش أمام الأمير الطموح ليصير سلطاناً على البلاد.

انتهى الحكم الأيوبي في مصر مع تبدد دماء الملك المعظَّم «توران شاه» بن الصالح نجم الدين أيوب[2]، واختار المماليك أرملة السلطان

---

(١) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، (دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٦٩م)، ص١٣٤ ـ ١٣٥.

(٢) كان توران شاه إخفاقاً أيوبياً جديداً، إذ فشل في الاستجابة للتحديات التي فرضتها الظروف التاريخية، وبدلاً من الانصراف لتوحيد المسلمين لمواجهة الفرنج الصليبيين بدأ يدبّر المؤامرات ضد زوجة أبيه «شجر الدر» وبقية زعماء المماليك. وانتهى الأمر بقتله، وتولت شجر الدر عرش البلاد.
انظر: أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص١٨٥؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر: ٣/ ١٨١ ـ ١٨٣؛ المقريزي، السلوك: ١/ ٣٥٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٦/ ٣٧١.

الصالح نجم الدين أيوب الأميرة «شجر الدر» لتولِّي عرش السلطنة الشاغر.

ولما كانت هذه السيدة في الأصل جارية تركية أو أرمينية، فقد اعتبرها بعض مؤرخي عصر سلاطين المماليك «... أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك»[1]، على حين تجاهل المؤرّخون من أبناء المماليك الذين عرفوا باسم «أولاد الناس» سلطنة هذه المرأة تماماً[2].

على أية حال، قبضت «شجر الدر» على زمام الحكم بيد من حديد، ووجهت اهتمامها للتخلص من بقايا الحملة الصليبية السابعة. ثم أخذت تتقرب إلى العامة والخاصة من رعاياها. بيد أن الرأي العام صدمته حقيقة أن امرأة تجلس على عرش البلاد، وهو الأمر الذي كان يتنافى مع التراث السياسي الإسلامي من جهة، ويتناقض مع النظرية السياسية الإسلامية من جهة ثانية، ويجافي الثقافة السائدة من جهة ثالثة[3].

واضطربت الأمور على المستوى الشعبي العام، كما عارض الفقهاء والمتعلمون جلوس «شجر الدر» على عرش السلطنة. ثم جاء رد الخليفة

---

(١) المقريزي، السلوك: ج١/ ٣٦١.

(٢) من هؤلاء ابن أيبك الدواداري صاحب «كنز الدُرر وجامع الغُرر»؛ وابن تَغْري بَرْدي.

(٣) قاسم، الأيوبيون والمماليك، ص١٢٧ ـ ١٢٩؛ راجع الفصل الأول من هذه الدراسة.

العباسي برفض المساندة الشرعية لحكم هذه السلطانة ساخراً حاسماً، تقول كلماته: «. . . إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسيِّر إليكم رجلاً . . . ». عندها أدركت السلطانة وأدرك زعماء المماليك أنهم يسبحون ضد تيار عارم، لا بدَّ وأن يغرقهم في موجاته.

وبعد ثمانين يوماً تنازلت «شجر الدر» عن الحكم لواحد اختارته بعناية من أمراء المماليك هو عز الدين أيبك التركماني الصالحي، الذي اشتهر بعزوفه عن الصراع حتى ظن الجميع أنه ضعيف، وقبل أمراء المماليك الأقوياء زواجه من شجر الدر وجلوسه على عرش السلطنة، بل إن بعضهم قال «. . . متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته. . . ». وتولَّى المعز أيبك الحكم في يوم السبت آخر شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ/ يوليو ١٢٥٠م ليثبت من خلال تصرفاته في مواجهة المشكلات والصعاب التي واجهته خارجياً وداخلياً، أن السلطانة «شجر الدر» وزعماء المماليك قد أسرفوا في الاستهانة به.

كان قطز أحب مماليك المعز أيبك وأقربهم إلى قلبه، وكان اشتراكه في التخلص من زعيم البحرية «فارس الدين أقطاي» ـ كما أشرنا ـ هو أول ظهور له على مسرح السياسة المملوكية، ثم كانت النهاية المأساوية لزواج سيده من شجر الدر فرصة كاملة لأن يتولَّى زمام الأمور، ويوجهها بالشكل الذي يضمن له العرش، ليقود المعركة ضد التتار ولتنتهي حياته على نحو مأساوي أيضاً.

لم تنتهِ متاعب أيبك في صراع السلطة بالتخلص من المماليك البحرية، وإنما انتهت بنهاية حياته في مؤامرة دبرتها زوجته «شجر الدر» التي وصفها المعاصرون بأنها «. . . امرأة صعبة الخلق، شديدة الغَيْرة، ذات شهامة زائدة، وحُرمة وافرة، سكرانة من خمر التيه والعجب. . . » فقد كان من الصعب عليها أن تتخلّى عن سلطة الحكم، وزاد من ضراوتها أن علمت أن زوجها يسعى إلى الزواج من إحدى أميرات البيت الأيوبي.

وبدأ الزوجان يتسابقان في نسج المؤامرات للتخلص من الآخر، وانتصرت المرأة في هذا السباق، ولقي السلطان مصرعه، فقد أرسلت شجر الدر إلى أيبك تتلطف به وتدعوه إلى القصر السلطاني، وحين دخل الحمام كان هناك مجموعة من الغلمان تناولوه بسيوفهم حتى أردوه قتيلاً[1].

وحين ذاع الخبر في صباح اليوم التالي، وعلم ولده «نور الدين علي» ومملوكه «سيف الدين قطز» ـ وكان أكبر مماليكه ـ بما حدث، أسرعا مع جماعة من المماليك المعزية إلى القصر السلطاني رغبة في الانتقام من شجر الدر. وبالفعل تم القبض عليها وحملها المماليك

---

(١) عن قصة أيبك وشجر الدُّر، انظر: المقريزي، السلوك: ١/ ٣٩٨ ـ ٤٠٤؛ ابن أيبك الدواداري، الدُّرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص٦٣٠ ـ ٦٥٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ١٣.

المعزية إلى ضرّتها، زوجة المعز الأولى وأم ولده علي؛ فأمرت جواريها «. . . فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت في يوم السبت، وألقوها من سور القلعة إلى الخندق، وليس عليها سوى سراويل وقميص. . .»(١).

هكذا كان العنف والدم هو الطريق إلى العرش منذ بداية عصر سلاطين المماليك، وعلى نفس هذا الطريق سار «سيف الدين قطز»؛ إذ كان على رأس فرقة الانتقام التي قبضت على «شجر الدر» بعد أن اغتالت زوجها وسيده عز الدين أيبك، وبصفته كبير المماليك المعزية بدأ ترتيب المسرح السياسي بالشكل الذي يلائم طموحاته وأحلامه، وسار الأمير خطوات أخرى صوب العرش.

فقد صمَّم المماليك المعزِّية، وعلى رأسهم سيف الدين قطز، على أن يقيموا على العرش الذي بات شاغراً بمصرع أيبك صبياً في الخامسة عشرة من عمره هو «نور الدين علي» ابن سيدهم المعز أيبك. وتم ذلك في ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م، ولقّبوه الملك المنصور علي.

وقد رفض المماليك البحرية الاعتراف بالسلطان الصبي، وتجسد رفضهم في عدة اضطرابات عاصفة. واستنجدت بعض الفئات المتنازعة بملوك بني أيوب في بلاد الشام، وحاول المغيث عمر صاحب إمارة

---

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٠٤.

الكـرك ـ في الأردن حاليـاً ـ غزو مصر مرتين، لكن الفشـل كـان من نصيبه[١].

بيد أن هذه الاضطرابات كانت فرصة جديدة لظهور نجم الأمير سيف الدين قطز، فقد قام قطز بالقبض على الأتابك سنجر الحلبي وحبسه في الجُب بقلعة الجبل، لأنه كان يطمع في السلطنة بعد مقتل المعز أيبك، ولأنه كان يتحيَّن الفرصة للوثوب على العرش[٢]. وأدى ذلك إلى مزيد من الاضطراب والفوضى، فقد هرب عدد من المماليك البحرية إلى جهة الشام، وطاردهم المماليك المعزية وقبضوا على عدد منهم وأودعوهم سجون القلعة[٣]. وخلا الجو لسيف الدين قطز فصار نائب السلطان «. . . وصار مدبر دولة الملك المنصور علي»[٤].

كان جلوس السلطان الصبي على العرش مسألة قُصد بها كسب

---

(١) أقام المماليك البحرية اعتراضهم على أساس صغر سن السلطان الصبي واتفقوا على سلطنة أتابك العسكر علم الدين سنجر الحلبي وحلفوا له، ولكن المحاولة انتهت بقتله، انظر:
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٦/ ٣٧٦؛ ٧/ ٤٢.

(٢) المقريزي، السلوك ١/ ٤٠٥؛ أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص١٤٠ ـ ١٤١.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٤٢.

(٤) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٠٥؛ ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٣٣.

الوقت حتى يمكن لواحد من كبار المماليك الطامعين في عرش السلطنة أن يحسم الصراع لصالحه، وكان هذا مشهداً تكرر كثيراً طوال عصر سلاطين المماليك؛ بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إنَّ هذه كانت ممارسة سياسية حظيت باعتراف الجميع طوال ذلك العصر.

ومن المهم أن نشير إلى أن المماليك لم يؤمنوا بنظام وراثة العرش، إذ أن طبيعتهم العسكرية من ناحية، وشعورهم بأنهم جميعاً سواء من ناحية أخرى، جعل كبار أمرائهم يعتقدون أنهم جميعاً يستحقون العرش الذي يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين، تحقيقاً لمبدأ «الحكم لمن غلب».

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أَنْ ظَلَّ عرش السلطنة على الدوام محل التنافس والمنازعات بين كبار الأمراء، لا سيما عندما يخلو العرش بسبب موت السلطان. وكان هذا هو الحال عندما مات عز الدين أيبك، ولم يشأ «سيف الدين قطز» أن يتعجل الأمور ويواجه المنافسين، فأمسك بيده زمام السلطة الفعلية تاركاً للسلطان الصبي شعائر السلطنة ولقبها... ولا شيء أكثر من ذلك.

وبات عرش مصر قاب قوسين أو أدنى، ثم جاءت الفرصة تسعى إلى قطز.

كان سيف الدين قطز مشغولاً بترتيب الأوضاع السياسية الداخلية لصالحه، على حين كانت الإشاعات تملأ سماء القاهرة بأن السلطان

الصبي يريد خلع قطز، مملوك أبيه وصاحب اليد البيضاء في تولِّيه عرش البلاد. واجتمع الأمراء في بيت أحد كبارهم، وتكلموا إلى أن نجحوا في إصلاح الأمور بين الملك المنصور علي وبين مملوك أبيه الأمير قطز «. . . وخلع عليه وطَيَّب قلبه» وهكذا توطدت مكانة سيف الدين قطز في الدولة[1].

وفي الوقت نفسه كانت الأحوال متردية تماماً بسبب الفتن التي أثارتها طوائف المماليك في القاهرة، كما كان خطر محاولات الغزو الفاشلة التي قام بها المغيث عمر في ذي القعدة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م، وفي ربيع الأول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م يقلق باله، بحيث خرج في المرتين للقاء المماليك البحرية وحليفهم الأيوبي.

وبفضل شجاعة «سيف الدين قطز» تم القضاء على هذا الخطر الأيوبي[2]. بيد أنه كان على قطز أن يواصل ترتيب أمور المملكة في الداخل بعد أن واجه الخطر الخارجي، فقد قبض على جماعة من الأمراء لميلهم إلى «الملك المغيث عمر» في هذا الشهر نفسه، وهم: الأمير «عز الدين أيبك الرومي الصالحي»، والأمير «سيف الدين بلبان الكافوري الصالحي الأشرفي»، والأمير «بدر الدين بكتوت الأشرفي»، والأمير

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٤٣.
(٢) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٠٩ ـ ٤١١.

«بدر الدين بلغان الأشرفي»... وغيرهم. وضرب أعناقهم في السادس والعشرين من ربيع الأول واستولى على أموالهم كلها[1].

وبذلك ازدادت القامة السياسية لسيف الدين قطز طولاً، ولكن الدولة التي يحكمها سلطان في سن الصبا بدت واهنة ضعيفة، وغير قادرة على تحمل مؤامرات الصغار ولعبهم بأقدار البلاد والعباد. ثم بدأ صدى طبول الحرب التترية يتردد على حدود السلطنة الوليدة، ولم يكن بوسع السلطان الصبي «نور الدين علي» أن يفعل شيئاً إزاء هذا الخطر الداهم، فقد كان يقضي وقته في ركوب الحمير والتنزه في القلعة «... ويلعب بالحمام مع الخدم»[2]. ومع كل خبر جديد عن وحشية التتار كانت الأحوال تزداد اضطراباً والقلق يفترس نفوس الناس.

فقد ملك هولاكو بغداد، وقتل الخليفة المستعصم بالله، وصار المسلمون بغير خليفة للمرة الأولى في تاريخهم، وخرب التتار الجوامع والمساجد والمشاهد، وسفكوا الدماء حتى جرت في الطرقات واستمروا على ذلك أربعين يوماً[3]. ومع ذلك فإن بعض الذين وضعتهم الظروف

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٤١١؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، (تحقيق زبيدة عطا): ٩/ ٥٥ ـ ٥٦.

(٢) ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٣٣. وقد وصفه بقوله: «كان صبي العقل، ضعيف الرأي، كثير اللعب».

(٣) انظر تفاصيل الغزو التتري في الفصل الرابع من هذه الدراسة.

على عروش بلاد المسلمين كانوا على قدر من الأنانية السياسية وضيق الأفق، بحيث حاولوا أن يتفقوا مع هولاكو ضد إخوانهم، فقد أرسل الملك الناصر صاحب دمشق ابنه الملك العزيز إلى هولاكو ومعه هدايا وعدداً من الأمراء، ليطلب منه على لسان أبيه قوات تساعده في أن يأخذ مصر من المماليك(1).

كانت الأحوال على هذا القدر من التردِّي والتمزق عندما تعيَّن على الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة أن يخطو الخطوة الأخيرة نحو العرش من ناحية، وتدعيم نفوذه السياسي الداخلي من ناحية ثانية، والاستعداد لمواجهة التتار من ناحية ثالثة.

وفي بلاد الشام كانت الأمور تزداد سوءاً بسبب رعونة الأيوبيين الصغار، وكان المماليك البحرية بزعامة بيبرس يواصلون الهرب من مكان إلى مكان آخر. وأرسل الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ـ الذي صار سلطاناً فيما بعد ـ إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف حاكم دمشق يلتمس منه الأمان، ثم جاء بالفعل ومعه عدد من الأمراء،

---

(1) المقريزي، السلوك: ١/ ٤١٠ ـ ٤١١. ويذكر المقريزي أن هولاكو أمر بأن يتوجه إليه بعسكر فيه قدر العشرين ألف فارس، فطار هذا الخبر إلى دمشق؛ فرحل من كان بها من المماليك البحرية، وساروا إلى الملك المغيث عمر بالكرك، وحرضوه على أخذ مصر، لكن سيف الدين قطز استطاع هزيمتهم. قارن رواية ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٤٥ ـ ٤٧.

حيث أكرمه الناصر وأعطاه إمرة مئة فارس، وأقطعه نصف نابلس وجينين. وعبثاً حاول بيبرس إقناع الناصر بالصمود أمام أخطار التتار، ثم جاء الملك العزيز، ابن الملك الناصر، من عند هولاكو ومعه رسالة كتبها رداً على خطابه الذي كان قد أرسله مع ابنه هذا نصها[1]:

«الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب، أنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾. واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه الندم واستوجب منا العدم. وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه خسيسة، فجمع المال، ولم يعبأ بالرجال، وكان قد نمى ذكره وعظم قدره، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال.

إذا تـمَّ أمـر دنـا نقصُـه   تَـوَقَّ زوالاً إذا قيـل تَـمْ
إذا كنت في نعمة فارْعَها   فـإن المعـاصـي تُـزيـل النِّعَـمْ
وكم من فتى بات في نعمة   فلـم يَـدْرِ بـالمـوت حتـى هَجَـمْ

إذا وقفت على كتابي هذا، فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه روي زمين (أي ملك الملوك على وجه

---

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٤١٥ ـ ٤١٦.

الأرض) تأمن شره، وتنل خيره، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾، ولا تعوّق رسلنا عندك كما عوقت رسلنا من قبل، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وقد بَلَغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بحريمهم إلى كروان سراي[1]، فإن كانوا في الجبال نسفناها، وإن كانوا في الأرض خسفناها.

أين النجاة ولا مناص لهاربٍ ولَّى البسيطان الثرى والماءُ
ذلَّت لهيبتنا الأسودُ وأصبحت في قبضتي الأمراء والوزراءُ».

هذا النص الذي أوردناه كاملاً يكشف طرفاً من الحرب النفسية التي كان التتار يشنونها ضد أعدائهم من ناحية، كما يكشف عن فداحة الخطر الذي كان على سيف الدين قطز أن يستعد لمواجهته من ناحية أخرى. كذلك فإن هجرة الكثيرين من أهل الشام إلى مصر ـ على ما تشير رسالة هولاكو ـ قد سبَّب رعباً وقلقاً شديداً في البلاد المصرية. لقد خاف الناس بدمشق خوفاً كثيراً عندما علموا أن التتر قد قطعوا نهر الفرات في طريقهم إلى الشام، وسار كثيرون منهم صوب مصر، وكان الوقت شتاءً،

---

(١) كان هذا هو الاسم التتري لمصر، وربما يكون السبب في ذلك أن مصر كانت منتهى معظم الطرق التجارية العالمية شرقاً وغرباً؛ انظر: المقريزي، السلوك: ١/ ٤١٦، هامش رقم ٣.

فمات منهم عدد كبير، ونهب البدو أمتعة كثيرين[1].

وأفاق الملك الناصر بعد فوات الأوان، فأرسل المؤرخ والفقيه المعروف كمال الدين بن العديم إلى مصر يستنجد بعساكرها، وهكذا بدأت الحرب تطل بوجهها المرعب على الساحة السياسية في مصر، وكان نجم تلك الساحة الساطع آنذاك هو الأمير «سيف الدين قطز».

فلما قدم ابن العديم إلى القاهرة عُقد مجلس بالقلعة حضره السلطان الصبي الملك المنصور نور الدين علي، وحضره كبار أهل الرأي من الفقهاء والقضاة، مثل: قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكان سيف الدين قطز بين الحاضرين. وسألهما الحاضرون عن أخذ الأموال من الناس لإنفاقها على الجنود، فقال ابن عبد السلام: «إذا لم يبقَ شيء في بيت المال، وأنفقتم الحوائص الذهب ونحوها من الزينة، وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب، ولم يبقَ للجندي إلاَّ فرسه التي يركبها، ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء، إلا أنه إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم...»[2].

كان العز بن عبد السلام في هذا القول مثالاً للفقيه الذي يرضي

---

(١) السلوك: ١/ ٤١٦.

(٢) المقريزي، السلوك: ١/ ٤١٦ ـ ٤١٧.

الرعية والسلطان في آن واحد؛ إذ قال كلاماً يدغدغ مشاعر الرعية بَيْدَ أنه نَسَفه في الجملة الأخيرة. وكان هذا الاجتماع من الأدوات السياسية التي أحسن سيف الدين قطز استغلالها للوصول إلى هدفه النهائي: عرش مصر وقتال التتار.

وكان ذلك الاجتماع الذي عقد بحضور السلطان الصبي آخر خطوات قطز صوب العرش، فقد زال خطر المماليك البحرية مؤقتاً بعد هزيمتهم أمام جيش مصر بقيادة قطز عندما تحالفوا مع المغيث عمر لغزو مصر، وتأكد هذا عندما طاردهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام حتى حصن الكرك وصحبته الملك المنصور صاحب حماة، فأرسل الملك المغيث عمر بن العادل الكامل صاحب الكرك رسُلَه إلى الناصر ومعهم عمَّته الدار القطبية ابنة الملك المفضل قطب الدين بن العادل. وتم الصلح على أساس أن يقبض المغيث على من عنده من المماليك البحرية، وتم ذلك بالفعل وتسلمهم الملك الناصر ما عدا ركن الدين بيبرس الذي دخل خدمته كما أسلفنا القول[١].

وقد فرح الأمير سيف الدين قطز لذلك فرحاً زائداً «... وزينت مصر لذلك أياماً، وصفا الوقت للأمير قطز...»[٢]، على حد تعبير

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٥٣.

(٢) المصدر السابق، ص٥٤.

المؤرخ جمال الدين أبي المحاسن ابن تغري بردي.

وبينما كان هولاكو يجتاح أقاليم العالم الإسلامي الشرقية، كان نجم «سيف الدين قطز» يزداد سطوعاً وتزداد قامته السياسية طولاً، وكأنه على موعد مع التاريخ لكي ينجز مهمته الكبرى في هزيمة الجحافل التترية الظالمة. ويقول المؤرخون المعاصرون في هذا الصدد: إن قطز صار هو المشار إليه بديار مصر لصغر سن السلطان المنصور علي، ولكثرة أتباع سيف الدين قطز.

لقد استغل قطز اجتماع القلعة لخلع السلطان الصبي، فأخذ يتحدث عن مساوئ المنصور علي، وقال: «لا بدَّ من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك الصبي صغير لا يعرف تدبير المملكة»[1].

كانت تلك هي الفرصة التي انتظرها قطز طويلاً في رحلته من «المملوك» إلى «السلطان»، وساعده على ذلك أن مفاسد الملك المنصور علي كانت قد زادت حتى انفض الجميع من حوله «... واستهتر في اللعب، وتحكمت أمه فاضطربت الأمور...». وجاءت الفرصة تسعى إلى سيف الدين قطز عندما خرج أمراء المماليك المعزية

(١) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة: ٩/ ٦٣؛ ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٣٩؛ المقريزي، السلوك: ١/ ٤١٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٥٥.

والبحرية إلى الصيد، في منطقة العباسية بالشرقية وفي غزة، وعلى رأسهم الأمير «سيف الدين بهادر» والأمير «علم الدين سنجر الغتمي»، في يوم السبت ٢٤ ذي القعدة سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م. وقبض قطز على الملك المنصور وعلى أخيه قاقان وأمهما، واعتقلهم في أحد أبراج القلعة، فكانت مدة حكم المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام[١].

هكذا اكتملت رحلة المملوك صوب العرش وصار سلطاناً على الديار المصرية، وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل في نفس اليوم، واتفق الحاضرون على توليته «. . . لأنه كبير البيت ونائب الملك وزعيم الجيش، وهو معروف بالشجاعة والفروسية، ورضي به الأمراء الكبار والخوشداشية، وأجلسوه على سرير الملك ولقبوه بالمظفَّر. . . »[٢]. ويعلِّق ابن تغري بردي على ذلك بقوله:

«والملك المظفَّر قطز هذا هو أول مملوك خَلَع ابن أستاذه من الملك وتَسَلْطن عوضه، ولم يقع ذلك قبله من أحد من الملوك، وتمت هذه السُّنة السيئة في حاصد إلى يوم القيامة، وبهذه الواقعة فسدت أحوال مصر»[٣].

---

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٤١٧؛ ابن تغري بردي، النجوم: ٧/ ٥٥. ويرى ابن تغري بردي أن مدة حكم المنصور كانت سنتين وسبعة أشهر واثنين وعشرين يوماً.

(٢) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة: ٩/ ٦٣.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٥٦.

لقد أوضح ابن تغري بردي أن التنافس على العرش المملوكي لم يحترم مبدأ وراثة الحكم، وإنما أرسى مبدأ «الحكم لمن غلب»، ولكنه رصد أعراض المرض السياسي الذي أودى بدولة سلاطين المماليك في نهاية الأمر، دون أن ينجح في تشخيص المرض نفسه. ومن ناحية أخرى، كان ابن تغري بردي يكتب في الشطر الأخير من عصر سلاطين المماليك، عندما تدهورت أحوال الدولة بسبب بذرة التنافس السياسي الدموي التي صاحبت قيام الدولة.

لقد تمثل الداء الأساسي لدولة سلاطين المماليك في أنها قامت على أساس القوة لا الشرعية، وصارت القوة هي الوسيلة المثلى للوثوب إلى العرش، ولم يكن قطز هو المسؤول عن هذا ـ كما يزعم ابن تغري بردي ـ وإنما كانت التربية العسكرية للماليك وظروف توليهم الحكم ـ بعد مصرع توران شاه ـ هي السبب في سيادة القوة. لقد كان كل من «شجر الدر» و«عز الدين أيبك» ضحية لسيادة مبدأ القوة، وسار قطز على طريق الدماء صوب العرش. ولكنه اكتفى بعزل السلطان الصبي.

على أية حال، لم يكن جلوس قطز على عرش السلطنة نهاية لرحلة المملوك إلى عرش السلطان. إذ كان على السلطان المظفَّر سيف الدين قطز أن يوطد دعائم حكمه في الداخل قبل أن يتوجه للقاء عدوه في الخارج، فبدأ بتغيير الوزير ابن بنت الأعز، وولَّى بدلاً منه زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن يزيد بن الزبير. ثم كان عليه أن يواجه معارضة

كبار الأمراء الذين «. . . قدموا إلى قلعة الجبل، وأنكروا ما كان من قبض قطز على الملك المنصور، وتوثُّبه على الملك، فخافهم واعتذر إليهم بحركة التتار إلى جهة مصر والشام. . .»[1]. كان لا بد للسلطان أن يميل مع الريح حتى لا تعصف به، لا سيما وأنه كان لا يزال على خوفه من تحرك الأيوبيين ببلاد الشام ضده، وخوفه الشديد من الناصر يوسف صلاح الدين حاكم دمشق. وقال سيف الدين قطز في سياق تبريره لما حدث: «. . . وإني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر. ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطنة من شئتم. . .»[2].

هكذا مرّت العاصفة الأولى على عرش السلطان بسلام، وأخذ يرضي أمراء المماليك «حتى تمكَّن» على حد تعبير المقريزي. وما أن شعر أن سلطته قد رسخت حتى أخذ يتخلص من كل من يمكن أن يشكل تهديداً على عرشه. فأرسل المنصور علي وأخاه وأمه إلى دمياط، واعتقلهم في برج بناه هناك وأطلق عليه اسم برج السلسلة، ثم نفاهم جميعاً إلى القسطنطينية[3]. بعد ذلك قبض السلطان سيف الدين قطز على الأمير

---

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٤١٧ـ٤١٨.

(٢) المقريزي، السلوك: ١/ ٤١٨.

(٣) يذكر بيبرس الدوادار: ٩/ ٦٣، أن المنصور علي بن المعز وأخاه وأمه اعتقلوا مدة في أيام المظفر قطز، ثم اعتقلوا في الإسكندرية أيام السلطان الظاهر =

علم الدين سنجر الغتمي، والأمير عز الدين أيدمر النجيبي الصغير، والأمير شرف الدين قيران المعزي، والأمير سيف الدين بهادر، والأمير شمس الدين قراسنقر، والأمير عز الدين أيبك النجمي الصغير، والأمير سيف الدين الدود خال الملك المنصور علي بن المعز، والطواشي شبل الدولة كافور لالا[1] الملك المنصور، والطواشي حسام الدين بلال المغيثي الجمدار، واعتقلهم. وهكذا تمكَّن من التخلص من رؤوس المعارضة.

ومن ناحية أخرى، بدأ السلطان المظفر سيف الدين قطز يختار أركان دولته ويوطد دعائم حكمه، فحلَّف الأمراء والعسكر لنفسه. واستوزر الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع، وأقرَّ الأمير فارس الدين أقطاي الصغير الصالحي المعروف بالمستغرب أتابكاً. وفوض إليه وإلى الصاحب زين الدين تدبير العساكر واستخدام الأجناد، وسائر أمور الجهاد والاستعداد للحرب ضد التتار.

لقد ضمن سيف الدين قطز هدوء الأحوال داخل دولته، بيد أنه

= بيبرس، ومن هناك تم نفيهم إلى القسطنطينية. ويتفق معه في هذه الرواية ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٥٥؛ أما ابن أيبك الدواداري (الدرة الزكية، ص٣٩) فيذكر الروايتين دون أن يرجح أياً منهما.

(١) «لالا»: لفظ فارسي معناه الشخص المكلف بالعناية بالأطفال. وكان هذا الطواشي هو المسؤول عن تربية المنصور علي في طفولته.

كان ما يزال متوجساً من ملوك الأيوبيين في بلاد الشام، خاصة الناصر يوسف صلاح الدين صاحب دمشق وحلب. وعندما علم بخبر قدوم نجدة من عند هولاكو إلى الملك الناصر بدمشق، خاف من عاقبة ذلك وكتب إليه خطاباً رقيقاً يحاول فيه تجنب المواجهة. وأقسم قطز بالأيمان أنه لا ينازع الملك الناصر في المُلْك ولا يقاومه، وأكد له أنه نائبٌ عنه بديار مصر، «ومتى حلَّ بها أقعده على الكرسي...» وقال قطز أيضاً: «... وإن اخترتني خدمتك، وإن اخترت قدمتُ ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيَّرت لك العساكر صحبة من تختاره...»[1]، وهكذا استطاع قطز أن يثبِّت الطمأنينة في قلب خصمه اللدود. وكان عليه أن يتفرغ تماماً لإنجاز مهمته التاريخية ضد التتار.

وهذا هو موضوع الفصل التالي.

* * *

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١.

الفصل الرابع

الخطر التتري

الفصل الرابع

الخطر التتري

أصل التتار، جنكيز خان وأولاده، الصدام مع العالم الإسلامي، سقوط الخلافة العباسية، التتار في العراق وشمال الشام، وصول المماليك البحرية إلى مصر، رُسُل التتار في القاهرة، الاستعداد للمعركة

قبل حوالي نصف قرن من الزمان الذي سبق أحداث قصتنا، كان جنكيز خان[1] (ومعنى الاسم ملك ملوك العالم) قد نجح في بناء إمبراطورية مترامية الأطراف، امتدت حدودها من شواطئ بلاد الصين شرقاً حتى منطقة البحر الأسود وبحر قزوين غرباً. وكان اسمه الحقيقي

---

(١) اسمه الحقيقي تيموجين (أي الصلب الخالص)، وتمكن في بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي أن يفرض زعامته على المغول بعد معارك وحروب طاحنة. وتحت قيادته تحول المغول إلى قوة رهيبة اكتسحت كافة المناطق ما بين بحر الصين شرقاً والبحر الأسود غرباً، وتوفي سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، تاركاً لأولاده مهمة متابعة غزو العالم. انظر:
Claude Cahen, the Mongols and the Near East, in Setton (ed.), A History of the Crusades, vol. II.pp. 615 - 716.

تيموجين، وبرز اسم هذا القائد المغولي للمرة الأولى حين قاتل التتار على رأس كتيبة جمعها من أرستقراطية الرعاة وانتصر عليهم، ثم أعلن جنوده زعيمهم تيموجين خاقاناً، وبذلك أحيا اسم أسرة المغول الذي كان قد اندثر في منغوليا نفسها[١].

وتطلق الوثائق الرسمية الصينية يوان Yuan على المغول والشعوب التي اندمجت فيهم داخل الصين اسم المغول (المنغول)، على حين أنهم عرفوا في منغوليا نفسها باسم التتار.

وقد بذل جنكيز خان جهداً كبيراً في توحيد منغوليا، وأفاد من بعض التجار المسلمين الذين استخدمهم في بلاطه والذين كانوا أول معلِّمي المغول في مضمار الحضارة[٢]. وكانت ديانة المغول خليطاً من عبادة الشمس والمسيحية والإسلام والبوذية، ويمكن القول إنهم تفرقوا بين كل الأديان باستثناء اليهودية، وكان التسامح الديني سائداً بينهم.

ومن الناحية العسكرية كانت جيوش جنكيز خان قد خرجت من موطنها بمناطق الاستبس بوسط آسيا، وأخذت تجتاح البلاد القريبة حتى تمكنت من بناء إمبراطورية امتدت من كوريا إلى بولندا، ومن تونكين إلى البحر المتوسط.

---

(١) فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، (نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم، الكويت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ص٥٤٥.
(٢) المصدر السابق، ص٥٤٦ ـ ص٥٥٥.

كان أول صدام بين المغول والعالم الإسلامي سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م، عندما أغاروا على بلاد السلطان «علاء الدين محمد بن خوارزم شاه تكش»[١]، وكان سبب الاحتكاك هو أن الحدود بين المملكتين قد صارت مشتركة، وكان طبيعياً أن يهتم كل من جنكيز خان وعلاء الدين محمد بتأمين حدود دولته. وعلى الرغم من محاولات الموادعة والمسالمة بين الجانبين فإن أسباب النزاع الكامنة لم تلبث أن فرضت نفسها. فقد أمر السلطان باعتقال قافلة من التجار قادمة من بلاد الخان المغولي على أنهم جواسيس، وكان عددهم أربعمئة وخمسين رجلاً، كلهم من المسلمين فقتلوا جميعاً. واتسم رد الفعل من جانب جنكيز خان بضبط النفس، فقد أرسل يطلب تسليم المسؤول عن قتلهم. وعلى الجانب الآخر رفض علاء الدين محمد طلب جنكيز خان، وزاد على ذلك بقتل الرسول الموفد من قبله، وأهان رفيقيه بحلق لحية كل منهما، وبذلك صارت الحرب واقعة لا محالة، وكان لا بد لجنكيز خان من قتال سلطان خوارزم شاه[٢].

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ١٨٥، حيث يذكر أن بداية خروج التتار «من بلادهم الجوانية إلى بلاد العجم. . .» كان سنة ٦١٣هـ؛ ثم يذكر في حوادث سنة ٦١٦هـ، (ص٢٠٥) أنباء إغارتهم على بلاد السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه.

(٢) بارتولد، تركستان، ص٥٦٤ ـ ٥٧٠؛ وعن الاستعداد للمعركة وتفاصيلها، انظر: ص٥٧١، ٥٨٣.

وقد وصلت قوات جنكيز خان إلى بخارى في شباط سنة ١٢٢٠م، ثم دخلوها بعد ثلاثة أيام من الحصار، وأجبر أهالي المدينة على مغادرتها دون أن يحملوا معهم شيئاً من متاعهم، وكان القتل مصير من بقي بالمدينة[١]. ثم زحف المغول صوب سمرقند، كبرى مدن ما وراء النهر، التي أسلمت مصيرها للمغول بسرعة مماثلة لما حدث في بخارى[٢]، وقد انتهى ذلك النضال بهرب السلطان واختفائه في جزيرة نائية بعد أن قتل الجانب الأكبر من جيشه على يد المغول.

وفي يناير من عام ١٢٢١م بدأ حصار المغول لعاصمة خوارزم[٣]، كانت مقاومة هذا السلطان للمغول واهنة متخاذلة لدرجة أن الكثيرين نسوه ولم يذكروا سوى اسم ابنه وخليفته جلال الدين الذي استطاع أن يسترد من المغول بعض المناطق التي احتلوها أيام أبيه، واستطاع أن يلحق بهم عدداً من الهزائم.

وظلّت الحرب سجالاً دون نتيجة حاسمة حتى مات جنكيز خان

---

(١) بارتولد، تركستان، ص٥٨٤.
(٢) المصدر السابق، ص٥٨٦، ٥٨٨.
(٣) المصدر السابق، ويذكر المؤرخ النسوي (صاحب كتاب تاريخ السلطان جلال الدين منكوبرتي) أنه عند وفاة السلطان علاء الدين محمد لم يكن هناك ما يكفي لشراء كفن له، وأن أحد أتباعه كفَّنه بقميصه. راجع: بارتولد، تركستان، ص٦٠٤.

في أغسطس ١٢٢٧م وهو في سن الثانية والسبعين، تاركاً لخلفائه إمبراطورية مترامية الأطراف تم فتحها بحد السيف.

في تلك الأثناء كان الخلاف قد دبَّ بين السلطان جلال الدين خوارزم شاه والخليفة العباسي الناصر لدين الله، وهاجم جلال الدين أراضي الخلافة العباسية، وفي الثاني من شهر شوال سنة ٦٢٢هـ توفي الخليفة العباسي؛ ولكنه كان قد ارتكب خطأً فاحشاً قبل وفاته؛ إذ استعان بالمغول ضد السلطان خوارزم شاه. ومن ناحية أخرى، كان جنكيز خان قد قسَّم إمبراطوريته الشاسعة بين أبنائه الأربعة، وبعد هذا التاريخ بسنوات ثلاث كان المغول قد قضوا تماماً على مملكة جلال الدين خوارزم شاه الذي اختفى هرباً من سيوفهم(١).

كان سقوط هذه المملكة نذير شؤم بالنسبة للخلافة العباسية، وأرسل الخليفة العباسي المستنصر بالله يستنجد بملوك الأيوبيين في مصر والشام، كما بعث يطلب النجدة من القبائل العربية. بيد أن الظروف التاريخية السائدة في المنطقة العربية كانت تبدو مواتية تماماً للطموح المغولي، فالخلافة العباسية أشبه بالرجل المريض الراقد على ضفاف

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٤/ ٣١٤ ـ ٣٢٩، (تحقيق د. حسنين ربيع، دار الكتب ١٩٧٢)، وقد ذكر أنهم قتلوا السلطان جلال الدين.

الرافدين، كما أن سلاجقة فارس والعراق قد صاروا جزءاً من التاريخ، ولم يعد لهم وجود حقيقي، أما دولة سلاجقة الروم فكانت متاعبها الداخلية أكبر من قدراتها. كذلك فإن الأيوبيين الصغار في بلاد الشام كانـوا على حال من التشـرذم والأنانية السياسـية تمنعهم من أي جهد حقيقي.

وتبقى دولة سلاطين المماليك التي كانت تعاني مشكلات الشرعية السياسية، وانتقال السلطة، وترتيب الأوضاع في الداخل واتقاء الأخطار القادمة من الخارج. وكانت المواجهة مع المغول بمثابة الاختبار الحاسم لقدرات هذه الدولة الوليدة[١].

ومن ناحية أخرى، كانت الجيوش المغولية أداة عسكرية ضخمة بالمقارنة مع الجيوش الصغيرة التي يمتكلها حكام المنطقة العربية، وكان طبيعياً أن تُطْوَى بلدان المشرق الإسلامي في سرعة هائلة، ويرجع السر في تفوق المغول إلى سرعتهم وقدرتهم على شن الهجمات الخاطفة، وتطوُّر فنون القتال والأسلحة، فضلاً عن تنظيم الجيش نفسه[٢].

على أية حال، كانت الأحوال ما تزال تتدهور في الخلافة العباسية، ومرة أخرى أرسل الخليفة يستنجد بالأيوبيين، وكان المغول قد هاجموا

---

(١) Claude Cahen, the Mangols and the Near East, PP. 717 - 718.

(٢) العبادي، قيام دولة المماليك، ص١٤٦ ـ ١٤٧.

بغداد للمرة الأولى سنة ٦٣٥هـ، ولكن الهزيمة لحقت بهم، وها هم الآن يعاودون المحاولة.

ففي سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م اجتمع مجلس رؤساء التتر (القوريلاي) في عاصمتهم (قراقورم)، وانتخبوا منكوخان بن تولاي بن جنكيز خان ليكون هو الخان الأعظم، وفي السنة التالية أرسل منكوخان حملتين: إحداهما توجهت إلى الصين، والأخرى توجهت غرباً صوب الأراضي الإسلامية. وكانت هذه الحملة تهدف إلى تحقيق هدفين رئيسيين: القضاء على معاقل طائفة الشيعة الإسماعيلية، وتدمير الخلافة العباسية في بغداد.

وتولَّى هولاكو قيادة الحملة الثانية، وسار بنفسه حتى وصل إلى دياربكر وميافارقين، حيث ارتكب المغول مذابح مهولة راح ضحيتها آلاف السكان، وتركوا وراءهم من قصص الرعب والفزع ما جعل المعاصرين يصورونهم في صورة وحش أسطوري لا يمكن قهره.

وهنا لا بدَّ أن نتابع القصة من بدايتها، ففي شباط سنة ٦٥٤هـ كان هولاكو قد دخل بقواته إلى أراضي فارس، حيث قضى على قلاع الشيعة الإسماعيلية، وأخذ يمهد للقضاء على الخلافة العباسية، وتشير بعض المصادر العربية إلى أنه أرسل عدداً من جواسيسه إلى بغداد، حيث عقد اتفاقاً سرياً مع الوزير ابن العَلْقمي وغيره من الأمراء «. . . والخليفة في لهوه لا يعبأ بشيء. . .»[(١)]، ويقول ابن أيبك الدواداري «. . . فيها

(١) ابن أيبك الدواداري، الدرة الذكية، ص٢٩؛ المقريزي، السلوك: ١/ ٤٠٠.

دخل هلاون سلطان التتار إلى بغداد في زي تاجر عجمي، ومعهماية حمل حرير، واجتمع بالوزير مؤيد الدين ـ ضد لقبه ـ وبابن الدرسوس نديم الخليفة، وأكابر الدولة. وكانوا قادرين على مسكه. ولكنهم خانوا الله ورسوله ودين الإسلام ـ قاتلهم الله ـ ثم خرج بعدما اتفق عمله معهم...». أما المؤرخ تقي الدين المقريزي فيذكر أن هولاكو أرسل جواسيسه فقط إلى الوزير، ولم يدخل بغداد بنفسه.

وفي السنة التالية (٦٥٥هـ) قصد هولاكو بغداد، وبعث يطلب الضيافة من الخليفة «... فكثر الإرجاف ببغداد، وخرج الناس منها إلى الأقطار، ونزل هولاكو تجاه دار الخلافة، وملك ظاهر بغداد، وقتل من الناس عالماً كبيراً...»[١].

ثم جاءت الصدمة العظمى في العام التالي ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م عندما تزلزل العالم الإسلامي بسقوط الخلافة العباسية، في أول شهر صفر من هذه السنة أمر هولاكو بالهجوم العام على بغداد، وفي اليوم الرابع من الهجوم استسلم الخليفة العباسي المستعصم بالله، وسلَّم عاصمته للغزاة بدون شرط. وبعد التسليم بعشرة أيام قُتل الخليفة وآل بيته، «... وقُتل الناس ببغداد، وتمزقوا في الأقطار، وخرّب التتر الجوامع والمساجد والمشاهد، وسفكوا الدماء حتى جرت في الطرقات، واستمروا على

---

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٠٧ـ٤٠٨.

ذلك أربعين يوماً. . . »[1].

هكذا ظلت بغداد الجريحة نهباً لكل الرغبات الوحشية والتدميرية على مدى هذه الأيام، وصارت بعدها أطلالاً تشهد على عنف المغول الذين أحرقوا مباني بغداد الجميلة ودمروا مكتبتها العامرة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تقع فيها عاصمة الخلافة أسيرة لغير المسلمين[2].

كان وقع الصدمة على نفوس المسلمين مريراً وعنيفاً، لأنهم وجدوا أنفسهم بدون خليفة للمرة الأولى في تاريخهم، وعلى الرغم من كل مظاهر الضعف التي بدت واضحة على الخلافة العباسية فإن مكانتها كانت راسخة في وجدان المعاصرين بالقدر الذي جعلهم عاجزين عن تصور العالم بدونها، إذ كان العالم ـ في نظرهم ـ مرادفاً للخلافة، وخُيِّل للمسلمين « . . . أن العالم على وشك الانحلال، وأن الساعة آتية عن قريب. . . ».

أخذ الزحف المغولي يطوي البلاد حتى وصل إلى أطراف بلاد الشام. وفي تلك الأثناء كان أمراء الأيوبيين في الشام فريسة للعجز

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٠٩ـ ٤١٠.
(٢) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة: ٩/ ٥٨ ـ ٦١؛ ابن أيبك الدواداري، الدرة الذكية، ص٣٤، ٣٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٤٨، ٥٣.

والذعر، وسارع الناصر يوسف حاكم دمشق وحلب إلى إرسال سفارة برئاسة ابنه إلى هولاكو، معلناً خضوعه الذي حاول أن يؤكده بالهدايا والتحف الفاخرة، كما طلب مساعدة المغول في أخذ مصر من أيدي المماليك.

ولكن قائد المغول غضب من السفارة التي اعتبرها غير لائقة بمقامه[1] وطلب من الناصر يوسف الخضوع دونما قيد أو شرط. وعندما أدرك الناصر أنه خسر احترام المسلمين بعث برسالة عنيفة ملؤها السباب إلى هولاكو الذي جعله يدفع ثمن السباب غالياً عندما اقتحم أملاكه.

واستنجد بالمماليك، ووعده قطز ـ الذي كان قد اعتلى عرش السلطنة آنذاك ـ بأن يساعده[2]. وفي شهر صفر سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م استولى هولاكو على حلب بعد سبعة أيام من الهول والتخريب وسفك الدماء[3]. وأعلن بعض ملوك الأيوبيين خضوعهم لهولاكو في محاولة لتجنب الخراب الذي حلّ بمدينة حلب، أما الناصر يوسف فقد اضطرب

---

(١) قاسم، الأيوبيون والمماليك، ص١٣٦.
(٢) المقريزي، السلوك: ١/ ٤١٩.
(٣) ابن أيبك، كنز الدرر: ٨/ ٥٦، ٥٨؛ المقريزي، السلوك: ١/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣؛ M. Mustafa Ziada, The Mamluk Sultans, in Setton (ed.), A History of the Crusades, Vol. II, PP. 744 - 745؛ العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص١٥٦، ١٥٨؛ قاسم، الأيوبيون والمماليك، ص١٣٦ ـ ١٣٧.

وعزم على لقاء هولاكو، وضرب معسكره ببرزة ـ قرية شمال دمشق ـ وطلب النجدة من الملك المغيث عمر صاحب إمارة الكرك، والسلطان المظفَّر قطز، بيد أن الناصر يوسف قد استسلم للخوف، كما تخاذل الأمراء من حوله بشكل أغضب الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ـ الذي كان قد دخل في خدمة الناصر ـ فقد أخذ الأمير زين الدين الحافظي يُعظِّم شأن هولاكو ويشير بألا يُقاتل، ويُداري بالدخول في طاعته، فصاح به بيبرس وسبّه وضربه وقال: «أنت سبب هلاك المسلمين». وفي الليل حاولت مجموعة من المماليك اغتيال الناصر يوسف، ولكنه نجا من الموت.

ثم توجه بيبرس إلى غزة، ومن هناك أرسل يطلب الأمان من سيف الدين قطز الذي حلف له «. . . ووعده الوعود الجميلة». ووصل إلى مصر فعلاً، فأنزله الملك المظفَّر سيف الدين قطز بدار الوزارة، وأحسن معاملته، ثم أقطعه قليوب ومناطق الريف المجاورة لها[1].

أما الناصر فقد سار باتجاه الحدود المصرية حتى غزة على أمل أن تصله النجدة في وقت مناسب، وفي شهر ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م استولى المغول على دمشق وتوسل أعيانها إلى هولاكو بعد أن قرروا تسليم المدينة «. . . فسيَّر طائفة من التتر وأوصاهم بأهل دمشق،

---

(١) المقريزي، السلوك: ١/٤١٩ ـ ٤٢٠.

ونهاهم أن يأخذوا لأحد درهماً فما فوقه . . . »[١] .

وبينما كانت هذه الأحداث العنيفة تلهب المشهد في المنطقة العربية، مات «منكوخان» كبير المغول، وكان لا بد لهولاكو من العودة إلى بلاده للمشاركة في اختيار الخان الأعظم الجديد. وعندما تم اختيار أخيه «قوبيلاي» تقبَّل الأمر ببساطة، ولكنه لم يرجع إلى قيادة جيشه الذي تركه ببلاد الشام تحت قيادة قائد تتري مسيحي، على المذهب النسطوري، هو كتبغا نوين[٢] .

وعلى الجانب الآخر كانت قوات الناصر يوسف الأيوبي المرابطة بالقرب من غزة قد آثرت الانضمام إلى الجيش المصري بقيادة المظفَّر سيف الدين قطز، سلطان الديار المصرية. وهرب الناصر في قلَّة من أتباعه بحثاً عن ملجأ يحميه بعد أن خسر جيشه وعرشه[٣]، وعلم القائد

---

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

(٢) كان هولاكو يتصور أنه سوف يُعيَّن خاقاناً للمغول بسبب أهمية فتوحاته وغزواته. ولكنه علم وهو في تبريز، التي حلت محل بغداد آنذاك، وصارت مقر الحكم المغولي للعراق، أن الاختيار وقع على أخيه قوبيلاي. وأن أمراء مغول الشرق قاموا بهذا الاختيار خلافاً لقواعد الحكم التي قررها جنكيز خان؛ بيد أن هولاكو تقبل النتيجة في هدوء احتراماً لأخيه.
انظر: أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص١٥٥ ـ ١٥٦.

(٣) Ziada, op. Cit. p. 745

المغولي بمكان الملك الناصر يوسف؛ فأرسل مجموعة من فرسانه لتقبض على الملك الشريد، وأُخذ أسيراً إلى هولاكو ومعه ولده الملك العزيز وأخوه غازي[1].

في تلك الأثناء كان السلطان سيف الدين قطز قد رجع إلى قلعة الجبل ليواصل التصفيات ضد خصومه السياسيين، فقبض على الأمير جمال الدين موسى بن يغمور، واعتقله بقلعة الجبل، كما أنه صادر ممتلكات كل من وفد إلى القاهرة من حاشية الملك الناصر يوسف «... وألزم زوجة الناصر بإحضار ما عندها من الجواهر، فأخذ منها جوهراً كثيراً...»[2] ثم وصلت رسل هولاكو إلى القاهرة ومعهم خطاب منه يفيض غطرسة، تقول كلماته:

«بسم إلـه السماء الواجب حقه، الذي ملَّكنا أرضه وسلَّطَنا على خلقه، الذي يعلم به الملك المظفَّر صاحب مصر وأعمالها، وسائر أمرائها وجندها وكتَّابها وعمالها، وباديها وحاضرها، وأكابرها وأصاغرها، أنا جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلَّطنا على من حلّ به غيظه، فلكم بجميع الأمصار معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وسلِّموا

---

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٢٧؛ ويقول المقريزي إن الذي قبض على الملك الناصر شخص من غلمانه يعرف بحسين الكردي الطبردار.

(٢) المصدر السابق نفسه.

إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، ويعود عليكم الخطأ.

فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى، فتحنا البلاد، وطهَّرنا الأرض من الفساد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فأي أرض تأويكم، وأي بلاد تحميكم، وأي ذلك ترى، ولنا الماء والثرى، فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من أيدينا مناص، فخيولنا سوابق، وسيوفنا صواعق، ورماحنا خوارق، وسهامنا لواحق، وقلوبنا كالجبال، وعديدنا كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع، والجيوش لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، لأنكم أكلتم الحرام، وتعاظمتم عن ردّ السلام، وخنتم الأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلَّة والهوان ﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ بما كنتم تعملون. ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾.

وقد ثبت أن نحن الكفرة وأنتم الفَجَرة، وقد سلَّطنا عليكم من بيده الأمور المدبّرة، والأحكام المقدَّرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم لدينا ذليل، وبغير المذلَّة ما لدنياكم علينا من سبيل. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا ردَّ الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وتُوري شرارَها، فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً، ولا كتاباً ولا حِرْزاً، إذ أزَّتكم رماحنا أزّاً. وتُدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، وعلى عروشها خاوية، فقد أنصفناكم، إذ أرسلنا إليكم، ومَنَنّا برسلنا عليكم».

ثم كتب:

«ألا قُلْ لمصر ها هلاون قد أتى   بحدِّ سيوف تمتطي وبواتر

صيرُ عزيز القوم فيها أذلّة   ونلحق أطفالاً لهم بالأكابر»[1]

جمع قطز الأمراء وشاورهم في الأمر، فاتفقوا على قتل الرسل المغول، وتم فعلاً القبض على الرسل واعتقلوا. ويبدأ السلطان في تحليف الأمراء الذين اختارهم، وأمر بأن يخرج الجيش إلى الصالحية ـ في محافظة الشرقية حالياً ـ. ولكن الأمراء كانوا يخشون لقاء المغول بعد أن سمعوا عن الأهوال والمذابح التي ارتكبوها، وبعد أن شاعت حولهم حكايات وأخبار تقترب من الخرافات والأساطير. ثم أحضر السلطان قطز رسُلُ التتر ـ وكانوا أربعة أفراد ـ[2] فتم توسيط أحدهم

---

(١) ابن أيبك الدواداري، الدرة الذكية، ص٤٧ ـ ٤٨؛ وقد أورد المقريزي (السلوك: ١/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨) نصاً يبدأ على النحو التالي: «من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم. باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء. يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا. . .»، ثم ذكر مضموناً قريباً من مضمون النص الذي أوردناه في المتن. وقد أورد القلقشندي (صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٨/ ٦٣ ـ ٦٤) نصاً ثالثاً يتطابق مع نص المقريزي.

(٢) يذكر ابن أيبك الدواداري أنهم «كانوا نيف وأربعين نفراً»، انظر: الدرة الذكية، ص٤٨؛ المقريزي، السلوك: ١/ ٤٢٩.

بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووُسِّط آخر بظاهر باب زويلة، ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووسط الرابع بالريدانية[1]، وعُلِّقت رؤوسهم على باب زويلة، وأبقى الملك المظفَّر قطز على صبي من الرسل، وجعله من جملة مماليكه.

كان هذا التصرف من جانب سيف الدين قطز إعلان حرب، «. . . ونودي في القاهرة وسائر إقليم مصر بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله ﷺ. . .»[2]. ويبدو أن الخوف من المغول كان بمثابة القيد الذي أقعد عدداً من الأمراء والجنود عن الخروج لملاقاة العدو. وهناك نص أورده تقي الدين المقريزي يؤكد هذا الاحتمال، تقول كلماته[3]:

«. . . وتقدَّم الملك المظفَّر لسائر الولاة بإزعاج الأجناد للخروج للسفر، ومن وُجد منهم قد اختفى يُضرب بالمقارع. وسار حتى نزل الصالحية، وتكامل عنده العسكر، فطلب الأمراء وتكلم معهم في الرحيل، فأبَوا كلهم عليه وامتنعوا عن الرحيل، فقال لهم: يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون من بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجِّه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته،

---

(١) التوسيط وسيلة من وسائل الإعدام في عصر سلاطين المماليك، تتم عن طريق ضرب الشخص بالسيف عند الوسط لقطعه نصفين.
(٢) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٢٩.
(٣) المصدر السابق، ص٤٢٩ ـ ٤٣٠.

فإن الله مطَّلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين. فتكلم الأمراء الذين تخيَّرهم وحلَّفهم في موافقته على السير، فلم يسع البقية إلا الموافقة وانفضَّ الجمع. . . ».

هكذا، كان الخوف من التتر قد جعل مهمة سيف الدين قطز أكثر صعوبة، لأن بعض الأمراء رأوا أن لا فائدة من محاربة العدو الرهيب، وأرادوا النكوص على أعقابهم. وكان لخطبته الحماسية وإصراره على القتال أثره الواضح في رفع الروح المعنوية لجنوده.

وفي الليل ركب السلطان وحرّك كوساته وقال: «أنا ألقى التتار بنفسي». فلما رأى الأمراء مسير السلطان وعزمه على الحرب خرجوا وهم في حال من التردد(١)، وخرج قطز بجيشه في رمضان سنة ٦٥٨هـ/ آب ١٢٦٠م، وصُحبته الملك المنصور صاحب حماة. وترك نائباً

---

(١) يقول ابن تغري بردي: «فلما اجتمعت العساكر الإسلامية بالديار المصرية ألْقى الله تعالى في قلب الملك المظفَّر قطز الخروج لقتالهم بعد أن كانت القلوب قد أيست من النصرة على التتار، وأجمعوا على حفظ مصر لا غير، لكثرة عددهم واستيلائهم على معظم بلاد المسلمين، وأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه، ولا عسكراً إلا هزموه. ولم يبقَ خارج حكمهم في الجانب الشرقي إلا الديار المصرية والحجاز واليمن. وهرب جماعة من المغاربة الذين كانوا بمصر إلى الغرب، وهرب جماعة من الناس إلى اليمن والحجاز، والباقون بقوا في وَجَل وخوف شديد، يتوقعون دخول العدو وأخذ البلاد. . . ». انظر: النجوم الزاهرة، ٧/ ٧٨.

عنه في مصر الأتابك فارس الدين أقطاي المستعرب. وكان قد أرسل إلى المنصور صاحب حماة، وهو ما يزال بالصالحية من الأراضي المصرية، رسالة يقول: «لا تحتفل في مد سماط، بل كل واحد من أصحابك يفطر على قطعة لحم في صولقه»[1].

وأمر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري أن يقود عساكره ليكونوا مقدَّمة الجيش إلى غزة، لكي يعرف أخبار التتر. وعندما وصل بيبرس إلى غزة لقي طلائع المغول، واستطاع أن يلحق بهم هزيمة غير حاسمة، بيد أنها كانت كافية لدفعهم إلى الرحيل من غزة؛ وهكذا سيطرت قوات بيبرس على غزة.

في الوقت نفسه وصلت قوات الجيش الرئيسي إلى غزة بقيادة السلطان المظفَّر سيف الدين قطز، ولكنه لم يمكث سوى يوماً واحداً، ثم رحل عن طريق الساحل إلى مدينة عكا، التي كانت ما تزال تحت سيطرة الصليبيين. ويذكر المقريزي[2] أن الفرنج خرجوا إليه بالهدايا وأرادوا أن يرسلوا معه قوات لمساعدته «... فشكرهم وأخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٧٨. والصولق (الجمع صوالق): مُخْلاة من الجلد كان الجنود يضعونها في الجهة اليمنى من أحزمتهم، بحيث يضعون فيها طعامهم الخفيف وقت الحرب.

(٢) السلوك: ١/ ٤٣٠.

أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر».

ويذكر المؤرخ ستيفن رنسمان أن بارونات عكا الصليبيين اجتمعوا لمناقشة الموقف، وأنهم كانوا يشعرون بالمرارة بسبب نهب المغول لصيدا، كما أنهم كانوا يخشون هذه القوات الشرقية ذات السجل الحافل بالمذابح الجماعية. ومن ناحية أخرى، كانت الحضارة الإسلامية مألوفة لديهم، ولذا كانت غالبيتهم تفضِّل المسلمين على التتار، بعكس المسيحيين المحليين الذين عاملهم المغول معاملة ودية.

ويؤكد ما ذكره المقريزي من أنهم عرضوا على السلطان قطز إمداده بقوات مساعدة، ولكنه يذكر أن مقدَّم الفرسان التيوتون المدعو آنو السانجر هاوزن Anno of Sangerhausen حذَّرهم من التمادي في الثقة بالمسلمين إلى هذا الحد، لا سيما إذا ما انتصروا وشعروا بقوتهم. ومن ثَمَّ استُبعدت فكرة التحالف العسكري، وقدموا للسلطان وعداً بحرية المرور وتقديم التسهيلات اللازمة[١].

في الوقت نفسه أخذ الأمير ركن الدين بيبرس يناوش قوات المغول ويراوغها حتى يُخفي تحركات الجيش الرئيسي، ثم انضمت قوات الجيش الرئيسي إلى القوة الاستطلاعية التي كان يقودها بيبرس عند عين جالوت على أرض الشام.

---

(١) Steven Runciman, A History of the Crusades, (Harper Torch books, NewYork, 1967), vol. III, PP. 311-312

من ناحية أخرى، كان كتبغا وبيدرا نائبا هولاكو في قيادة قوات الجيش المغولي قد جمعا شراذم القوات المغولية التي كانت قد تفرقت ببلاد الشام في جيش موحد لمحاربة قوات سيف الدين قطز. وكان كتبغا نوين بالبقاع في لبنان الحالي، فاستدعى الملك الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص، وقاضي القضاة محيي الدين، واستشارهم في ذلك؛ فمنهم من أشار بعدم الالتحام بقوات السلطان سيف الدين قطز حتى يجيء المدد من هولاكو، ومنهم من أشار بغير ذلك[1]، ولكن قائد المغول قرر التقدم بجيشه لقتال المسلمين. وكان جيش سيف الدين قطز قد تكاثر بمن انضم إليه من جنود الشام والخوارزمية، فضلاً عن أعداد كبيرة من المتطوعين الذين خرجوا من مصر وسائر بلاد المنطقة العربية للجهاد في سبيل الله.

وهكذا، باتت القوات الإسلامية والقوات المغولية على وشك الصدام، وتم فعلاً الصدام على أرض عين جالوت في السادس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م.

وهذا هو موضوع الفصل التالي.

* * *

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٧٩.

الفصل الخامس

معركة عين جالوت

الفَصْل الخامِسُ

مَعْرَكة عَيْن جَالوتْ

الموقف عشية المعركة، المعركة ونتائجها، ما بعد عين جالوت
السلطان المظفر سيف الدين قطز في بلاد الشام

كانت معركة «عين جالوت»، التي جرت يوم السادس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـ/ ٣ سبتمبر ١٢٦٠م، واحدة من المعارك الفاصلة في تاريخ المنطقة العربية بأسرها من ناحية، كما كانت بمثابة تأكيد الوجود العسكري والسياسي لدولة سلاطين المماليك من ناحية أخرى. وإذا كانت معركة المنصورة ـ قبل عشر سنوات ـ بمثابة صرخة الميلاد التي أعلنت عن قيام دولة سلاطين المماليك، فإن معركة عين جالوت كانت شهادة الميلاد الرسمية لهذه الدولة.

فقد كانت غاية ما يهدف إليه أمراء المماليك الذين تولَّوا قيادة الجيش المصري أن يدفعوا خطر المغول بعيداً عن حدود دولتهم، بيد أن تداعيات الحرب جعلت الجنود المصريين والشوام، الذين صحبتهم أعداد هائلة من المتطوعين، يستأصلون شأفة جيش المغول من بلاد الشام أيضاً.

وقد أثبتت هذه المعركـة أن الأمن المصري يبدأ في بـلاد الشـام عامة، وفي فلسطين على نحو خاص، وهو أمر تؤكده التجارب التي مرّت على المنطقة طوال تاريخها، وكانت النتيجة النهائية لهذه المعركة الحاسمة توحيد مصر وبلاد الشام تحت حكم سلاطين المماليك على مدى ما يزيد على مئتين وسبعين سنة.

كانـت معركـة عين جالوت واحدة من أكثر المعارك حسـماً في التاريخ. صحيح أنه بسبب الأحداث التي حدثت على بُعْد أربعة آلاف ميل من ميدان المعركـة كان الجيش المغولي أضعف من أن يستطيع إخضاع المماليك، ذلك أن هولاكو اضطر إلى أن يأخذ قسماً كبيراً من جيشه عندما علم بموت أخيه الخان الأعظم منجو خان، ورحل مسرعاً صوب العاصمة قراقورم، ليحضر اجتماع القورلتاي (أي مجمع زعماء التتار)، ثم توقف في تبريز من بلاد فارس عندما علم باختيار أخيه قوبيلاي في منصب الخان الأعظم، على نحو ما ذكرنا من قبل.

لكن الحقيقة أن انتصار عين جالوت أنقذ العالم الإسلامي من خطر فادح لم يواجه مثله من قبل، ذلك أن المغول إذا استولوا على مصر لم تكن هناك دولة إسلامية كبيرة أخرى يمكن أن تواجههم. حقيقة أن المسلمين في آسيا كانوا من الكثرة بحيث لم يكن ممكناً أن يقضي المغول عليهم، بيد أنهم لم يعودوا هم الحكام في تلك المناطق.

وعلى الرغم من أن المؤرخين الأوروبيين ومنهم ستيفن رنسمان[1] يُسرفون في تصوير ما كان سيحدث من تعاطف مغولي مع المسيحيين «لو» انتصر المغول بقيادة كتبغا نوين المسيحي النسطوري، فإن التاريخ لا يعرف الاحتمالات، ولا يستخدم «لو»، لأن مهمة المؤرخ أن يحكي ما حدث بالفعل.

وما حدث بالفعل هو أن معركة عين جالوت أسفرت عن هزيمة ساحقة للمغول من ناحية، ومن ناحية أخرى جعلت سلطنة المماليك في مصر وبلاد الشام القوة الرئيسية في المنطقة على مدى القرنين التاليين على الأقل، أي حتى ظهور الإمبراطورية العثمانية في القرن الخامس عشر الميلادي.

وربما يكون من المناسب هنا أن نشير إلى أننا نرى أن الخطر المغولي على العالم الإسلامي لم يكن بمثل فداحة الخطر الصليبي عليه، حقيقة أن المغول قد زلزلوا أركان العالم الإسلامي بعنفهم المدمر، ولكنهم لم يلبثوا أن ذابوا في خضم الحضارة العربية الإسلامية، بل إنهم صاروا بعد جيلين من المساهمين في بناء هذه الحضارة والحفاظ عليها، وكان خطرهم آنياً مؤقتاً يكمن في تفوقهم العسكري الذي جعلهم يطوون البلاد بسرعة عجيبة.

---

(١) Steven Runciman, op. cit, PP. 313 - 314

أما فرنج الغرب «الصليبيون» فكان لديهم مشروع لا يتحقق سوى بالقضاء على الوجود الحضاري للمسلمين، والعرب (مسلمين وغير مسلمين). كما أن العنف المدمر لم يكن ينقصهم، وكانت الحروب الصليبية في جوهرها حروباً استيطانية توسعية تحت راية الصليب، ومن ثَمَّ كانت صراعاً بين الحضارة العربية الإسلامية صاحبة الأرض والحق، والحضارة الأوروبية الكاثوليكية التي قامت بعدوانها على أرض تبعد ألفاً ومئتي ميل عن مركز الدعوة الصليبية. ولم يحدث من قبل، أو من بعد، أن توحدت أوروبا في مشروع واحد مثلما توحدت تحت راية المشروع الصليبي.

كذلك كان الصراع صراع وجود على الأرض العربية على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط، وكان لا بد لهذا الصراع أن يسفر عن بقاء أحد الطرفين، وتدمير الآخر، إذ كان الصليبيون يتحركون بدافع من أيديولوجية عنصرية تنكر حق الوجود على الآخرين، كما وجهوا اهتمامهم صوب تفريغ المناطق السكانية من أصحابها الأصليين، لتوطين عناصر بديلة غريبة جاءت من أنحاء أوروبا؛ وهو ما تقوم به العُصْبة الصهيونية في فلسطين حالياً.

على أية حال، جاءت معركة عين جالوت يوم الجمعة بعد طلوع الشمس «... وفي قلوب المسلمين وهمٌ عظيم من التتر...»[1].

---

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٣٠ ـ ٤٣١.

وعين جالوت اسم لبلدة صغيرة في الريف الفلسطيني تقع بين بيسان ونابلس، واسمها يرتبط بالأسطورة التي تقول: إن داود قتل جالوت في هذا المكان، وقد أسماها الفرنج بعد احتلالهم فلسطين طوبانيا[1] Tubanea.

وفي صباح يوم المعركة امتلأ الوادي بالجنود والناس الذين كانوا قد توافدوا متطوعين أو للقيام بالخدمات التي يحتاجها الجنود عادة، وهو أمر كان شائعاً في تلك العصور التي لم تعرف جيوشها أسلحة الخدمات التي تعرفها الجيوش الحديثة، وكَثُر صياح أهل القرى من الفلاحين.

ثم بدأت الكوسات والطبول تدق لتجميع قوات جيش المماليك، وهي الموسيقى العسكرية التي تحمل أوامر يفهمها الجنود، واتخذ جيش المغول موقعه صوب الجبل، على حين كان جيش المسلمين بقيادة سيف الدين قطز، سلطان الديار المصرية، في الوادي.

ويرى بعض المؤرخين العسكريين أن «التجهيز القتالي لقرار قطز الذي اتخذه قبل المعركة، والذي يتلخص في أن يزحف بجيوشه بواسطة مقدمة الجيش، وليس كما كان كالمعتاد بواسطة جواسيس أو طلائع

---

(١) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص١٦٤؛ Encyclopaedia of Islam, Art. Ain Djalut

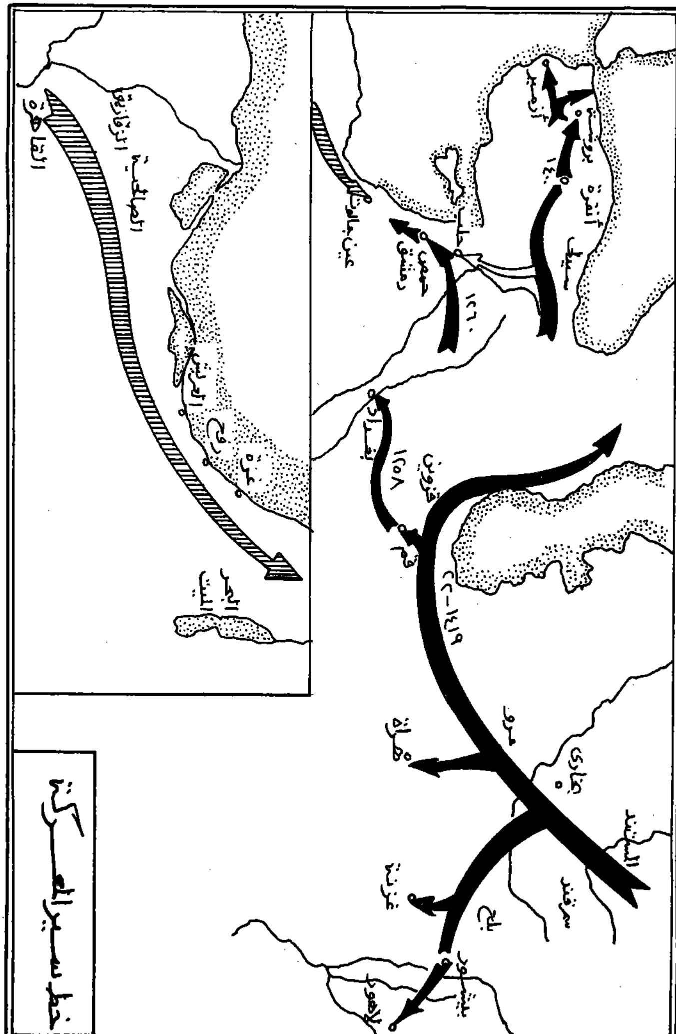
محددة، حينما أرسل بيبرس على رأس مقدمة الجيش لاستطلاع قوات التتار ودراسة مواقعهم وقواتهم وأسلحتهم وقيادتهم وخططهم.

وكان هو الشيء الجديد في ذلك الزمن الذي لم يشاهد من قبل في حروب العرب السابقة، وهو التطبيق التكتيكي السليم، إذ يعني ذلك دراسة العدو للوصول إلى أفضل أسلوب لتدميره بأقل خسائر ممكنة، وهو الأسلوب الجديد، حيث كان كل أمراء المدن العربية يكتفون بتقوية الحصون عندما تصلهم تهديدات التتار ويؤثرون السلامة في الدفاع من وراء الأسوار. أما قطز، قائد الجيش المملوكي، فقد كشفت خطته عن فهمه الجيد لفنون القتال كما سبق مما تقدم، والتي حقَّق بها بيبرس أول مرحلة قتالية من الخطة الاستراتيجية بتدمير الحرس الأمامي للمغول في غزة، وذلك قبل موقعة عين جالوت بقيادة «بيدرا»، واسترد منهم غزة وطاردهم حتى نهر العاصي»[١].

وعندما علم كتبغا نوين ـ قائد الجيش المغولي ـ بهزيمة بيدرا قائد المقدمة، تحول إلى كتلة متحركة من الغضب اللاهب، وأقبل بدافع الانتقام من جيش المماليك معتمداً على شهرة جنوده، وفكرة الجيش المغولي الذي لا يُهزم.

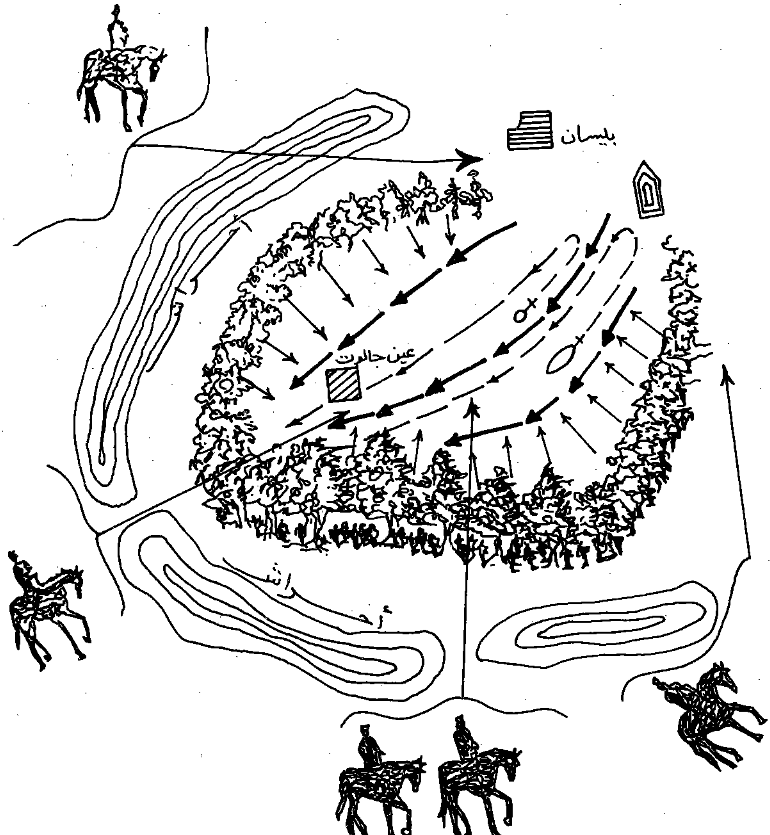
---

(١) عميد أركان حرب محمود نديم أحمد فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣)، ص ١٤٠.



خط سير المعركة

(نقلاً عن كتاب : الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري)



كروكي إدارة المعركة لفوز السلطان قطز في معركة عين جالوت

(نقلا عن كتاب: الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري)

ويمكن أن نستدل من أحداث المعركة[1] على مدى الوعي في التجهيز القتالي بكل عناصره، وكيف طبق الجيش المصري المبادئ الحربية السليمة حتى تحقق له النصر. فقد تجمع الجيش المصري عند مدينة عكا حيث عقد السلطان سيف الدين قطز مؤتمراً حربياً حضره رؤساء الفرق العسكرية لعرض خطة قرار المعركة، وهو أحدث ما وصل إليه الفن الحربي تكتيكياً واستراتيجياً، حيث يعرض القائد قراره على جنوده وضباطه، ويستمع إلى آرائهم، ويلقِّن كلاً منهم المهمة العسكرية المنوطة به.

ولم ينسَ السلطان قطز أن يلهب حماسة جنوده بخطبته التي أوردنا جزءاً منها في الفصل السابق[2]، وهذا ما يعرف في عرف العسكريين بالتجهيز المعنوي للقتال.

وربما يكون مفيداً أن نورد وصفاً تفصيلياً للمعركة حسب شهادات المعاصرين وشهود العيان، ثم نستكمل العرض التحليلي لمعركة عين جالوت من وجهة نظر العسكريين المعاصرين. وهنا نعرض لرواية

---

(١) سوف نعتمد في هذا الجزء على التحليل العسكري للمرحوم عميد أركان حرب محمود نديم باعتباره مؤرخاً عسكرياً عارفاً. انظر (الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري)، ص١٤٠، ١٤٨.

(٢) انظر: المقريزي، السلوك: ١/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

«صارم الدين أزبك بن عبد الله الأشرفي» الذي كان أسيراً لدى المغول عندما غزا هولاكو بلاد الشام، ثم قبِل الخدمة في صفوف جيش المغول، وحارب ضمن صفوف هذا الجيش في معركة عين جالوت؛ ففي هذا النص الهام رواية للمعركة من وجهة نظر المغول، سنقابلها برواية من وجهة نظر المسلمين.

تقول رواية صارم الدين أزبك[1]: « . . . ولما قدمتُ الشام، وجدت التتار مجتمعين على نهر الأردن، وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية، وقد خرج المسلمون للقائهم، فلما علمت أن التتار لا بدَّ لهم من الديار المصرية، بعثت غلاماً لي في صفة جاسوس، وأمرته أن يجتمع بالملك المظفَّر قطز، والأمير بيبرس البندقداري، وبلبان الرشيدي وسنقر الرومي، ويعرِّفهم أن التتار لا شيء فلا تخافوا منهم، وأن تكون ميسرة المسلمين قوية بالخيل والرجال، وعرَّفهم أن التتار في عسكر قليل، وأوصيته أن يراعي المسلمون أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس.

---

(١) كان صارم الدين أزبك من مماليك الأشرف موسى حاكم حمص، وعمل في وظائف الإدارة ببلاد الشام فترة من الزمن، كما عاش فترة من حياته ببلاد المغول. وقد مكنه ذلك من أن يقدم معلومات دقيقة عن المغول وعاداتهم، أملاها على موظف مملوكي آخر هو قرطاي العزي الخازنداري (ت٧٣٤هـ) وقد أورده ابن أيبك الدواداري في كتاب «كنز الدرر وجامع الغرر»: ٨/ ٥٣ ـ ٥٤؛ انظر أيضاً: أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص١٦٤ ـ ١٦٥.

فلما وصل غلامي إلى عسكر المسلمين وجدهم خائفين من التتار خوفاً عظيماً، فاجتمع ببعض الأمراء الذين عرَّفته بهم، وعرَّفهم ما أوصيتهم به، وكنت قلت في كلامي: قل للأمراء لا تخافوا، ها أنا وأصحابي والملك الأشرف، ننهزم بين أيديكم، والله وكذلك كان.

فلما سمع الأمراء كلام غلامي، قال بعضهم لبعض: «لا يكون هذا معمولية على المسلمين». فلما كان ملتقى الجمعين على «عين جالوت»، طلعت الشمس علينا، وظلت عساكر الإسلام، كان أول سنجق سبق أحمر وأبيض، وكانوا لابسين العُدد المليحة، وأشرقت الشمس على تلك العدد، فطلبني كتبغا وقد بُهت هو والتتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحسن ما عليهم وجمالهم وهم ينحدرون من الجبل، وقال لي: «يا صارم هذا رُنْك من؟»[1] قلت: سنقر الرومي.

---

(١) «رُنك»: كلمة فارسية معناها «لون»، واستخدمت في تلك الفترة بمعنى «الشعار» أو الرمز الدال على الأمير أو الأسرة أو الوظيفة. وفي دولة سلاطين المماليك كان لكل أمير رُنك خاص به يدل على وظيفته، وكان أمراء المماليك يرسمون هذه الرنوك على أبواب بيوتهم، ومطابخ العسكر الخاضعة لهم، وشون الغلال والمراكب. . . وما إلى ذلك، كما كانوا يضعون رنوكهم على قماش خيولهم من جوخ ملون مقصوص، أو على قماش جمالهم من خيوط صوف ملونة، وربما نقشوه على أسلحتهم وأسلحة مماليكهم. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: ٤/ ٦١ـ٦٢.

ثم ظهرت سناجق صفر، قال: « هذا رنك من؟» قلت: «بلبان الرشيدي»، ثم تتابعت الأطلاب أولاً فأولاً، وانحدروا من سفح الجبل، ودقت الكوسات والطبلخانات، وامتلأ الوادي والبر من العياط. وجاء الفلاّحون وأهل القرى والبلدان من كل جانب، وكنت غِراً رنوك المسلمين، فصار كتبغا يسألني «هذا رنك من؟» فصرت أي شيء طلع على لساني قلته.

ثم إن التتار انحازوا إلى الجبل، وفتح الله ونصر هذه الملة المحمدية بالمماليك الترك البحرية، ولم يسلم من التتر من يردّ الخبر إلى هلاون، ولكن قتل الجميع، ولم يرد خبرهم إلا من كان مقيماً بدمشق أو حلب».

هذه الرواية من الجانب المغولي تقابلها رواية من الجانب الإسلامي، أوجزها تقي الدين المقريزي على النحو التالي(١):

«. . . وقد امتلأ الوادي، وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين، وتتابع ضرب الكوسات للسلطان والأمراء، فتحيز التتر إلى الجبل. فعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان، وانتقض طرف منه؛ فألقى الملك المظفَّر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: «وا إسلاماه»، وحمل بنفسه وبمن معه حملة

---

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٣٠ ـ ٤٣١.

صادقـة، فأيده الله بنصره، وقُتل كتبغا مقدَّم التتر، وقُتل بعده الملـك السعيد حسن بن عبد العزيز، وكان مع التتر، وانهزم باقيهم، ومنح الله ظهورهم للمسلمين يقتلون ويأسرون، وأبلى الأمير بيبرس أيضاً بلاءً حسناً بين يدي السلطان».

«ومما اتفق في هذه الواقعة، أن الصبي الذي أبقاه السلطان من رسل التتر وأضافه إلى مماليكه، كان راكباً وراءه حال اللقاء. فلما التحم القتال فوَّق سهمه نحو السلطان، فبصر به بعض من كان حوله فأُمسِك وقُتل مكانه، وقيل بل رمى الصبي السلطان بسهمه فلم يخطئ فرسه وصرعه على الأرض، وصار السلطان على قدميه فنزل «فخر الدين ماما» وأركبه فرسه، حتى حضرت الجنائب (أي الخيول الاحتياطية) فركب فخر الدين منها».

«ومرَّ العسكر في أثر التتر إلى قريب بيسان، فرجع التتر وصافُّوا مصافاً ثانياً أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم. وكان قد تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً، فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظم العسكر وهو يقول: «وا إسلاماه» ثلاث مرات «يا الله، انصر عبدك قطز على التتار». فلما انكسر التتار الكسرة الثانية، نزل السلطان عن فرسه، ومرَّغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلَّى ركعتين شكراً لله تعالى، ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالغنائم»(١).

---

(١) قارن هذه الرواية بروايات كل من: =

هكذا، اقتضى الأمر أن يخوض المصريون معركتين عند عين جالوت وبيسان لكي يجهزوا على القوات المغولية، وعلى الرغم من شدة القتال في الحالين فإن النصر حالف الجيش المسلم لأن الإعداد لهذه المعركة كان جيداً.

ولقد طبقت القوات المصرية مبدأ المفاجأة على المستوى الاستراتيجي بنقل ميدان المعركة خارج الأرض المصرية، وتكتيكياً بإخفاء القوات الرئيسية في التلال والأحراش القريبة من عين جالوت. ولم يظهر للعدو إلا المقدمة التي قادها بيبرس، ووقع كتبغا نوين في الفخ، لأنه هاجم بكل قواته ضد قوات ركن الدين بيبرس الذي كان يقود طليعة جيش المماليك فقط، ولم يحتفظ القائد المغولي بأية احتياطات مما ساهم في التعقيدات العسكرية التي أدَّت إلى هزيمته(١).

لقد هاجم كتبغا ميسرة الجيش المصري، بحيث تمكن جنوده المغول من تشتيت القوات المقاتلة في هذا الجانب، ولكن شجاعة السلطان سيف الدين قطز وثباته على رأس جنوده أنقذت الموقف، إذ جعل صيحة الحرب التي أطلقها بنفسه «وا إسلاماه»، وسرعان ما انقض

= ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر: ٨/ ٤٩، ٥٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٧٨، ٨١؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة: ٩/ ٦٩ ـ ٧٠.

(١) محمود نديم، الفن الحربي، ص١٤١.

بجنوده على الجيش المغولي الذي ارتد مذعوراً، وفرَّ الجنود المغول إلى التلال المجاورة بحثاً عن ملاذ يحميهم بعد أن شاهدوا قائدهم كتبغا نوين يسقط صريعاً في أرض المعركة، وبعد أن تمكنت قوات المماليك من أسر ابنه[1].

كانت تلك هي المرحلة الأولى من الحرب ضد المغول، وكانت نتائج تلك المعركة حاسمة على المدى البعيد، ولكن المعركة العسكرية كانت بحاجة إلى أن تُحسم ضد فلول المغول الذين ما لبثوا أن تجمعوا عند «بيسان» القريبة من «عين جالوت»، ثم اشتبك الجيشان في معركة أشد وطأة من الأولى حسبما تذكر المصادر التاريخية العربية[2]، ولقي المغول هزيمة كاملة هذه المرة.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يلقى فيها المغول هزيمة بهذه الفداحة وبهذا الحجم، وكان من أهم نتائج معركة عين جالوت أن تبدد الخوف منهم، وتلاشت الأسطورة القائلة بأنهم قوة لا يمكن هزيمتها. ومن ناحية أخرى، تغيرت موازين القوى السياسية والعسكرية في

---

(١) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص٢٠٧؛ وانظر: العبادي، قيام دولة المماليك، ص١٦٦؛ محمود نديم، الفن الحربي، ص١٤٧. وكان الذي قتل كتبغا نوين قائد المغول هو الأمير جمال الدين آقوش الشمسي. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٧٩.

(٢) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٣١.

المنطقة العربية بشكل كامل، وعلى مدى عدة قرون قادمة. فقد ذابت في طيّات الموجات المغولية القوة السياسية والعسكرية للخلافة العباسية من ناحية الشرق، كما اختفت التيجان الأيوبية الصغيرة ببلاد الشام في خضم الصراع ضد المغول.

أما أكثر النتائج السياسية والعسكرية أهمية على الإطلاق، فقد تجسَّدت في ظهور دولة سلاطين المماليك، وريثاً شرعياً لكل من الأيوبيين والعباسيين على السواء. فبعد عين جالوت مباشرة، استولى السلطان الملك المظفَّر سيف الدين قطز على بلاد الشام كلها «. . . من الفرات إلى حد مصر. . . »[1]، وكان قطز هو «. . . أول من ملك البلاد الشامية واستناب بها من ملوك الترك. . . »[2].

وهكذا توطدت أركان دولة سلاطين المماليك باعتبارها القوة الإقليمية الكبرى في المنطقة العربية، كما تم توحيد مصر والشام تحت حكمها في خضم الصراع ضد المغول. ذلك أن انتصار الجيش المملوكي في عين جالوت أنهى المقاومة الأيوبية لحكم سلاطين المماليك إلى الأبد، كذلك فإن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري أعاد إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة، مما جعل هذه المدينة العاصمةَ

---

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٣٣؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة: ٩/ ٧٠.
(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٨٣.

السياسية والعسكرية والثقافية للعالم العربي على ما يزيد على قرنين ونصف من الزمان.

كان انتصار المسلمين بقيادة سيف الدين قطز في «عين جالوت» بمثابة المسمار الأخير في نعش الوجود المغولي ببلاد الشام من ناحية، كما كان نذير شؤم بالنسبة للوجود الصليبي في هذه البلاد من ناحية أخرى[1].

لقد وصل خبر هزيمة المغول إلى دمشق يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، وبدأ النواب والولاة الذين كان التتار قد عيَّنوهم لحكم بلاد الشام في الفرار خوفاً من بطش الناس «... ففر الزين الحافظي ونواب التتار من دمشق وتبعهم أصحابهم، فامتدت إليهم أيدي أهالي الضياع ونهبوهم، فكانت مدة استيلاء التتر على دمشق سبعة أشهر، وعشرة أيام»[2].

---

(١) تولت دولة سلاطين المماليك، منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس - خليفة قطز - حتى عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاون، مهمة القضاء على الكيان الصليبي في فلسطين، وكان الاستيلاء على عكا سنة ١٢٩١م هو الحدث الأخير في هذا السبيل.
انظر: قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية (دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٣م)، ص١٦٨ - ١٦٩.

(٢) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٣٢.

في نفس هذا اليوم نزل السلطان سيف الدين قطز بجيشه على طبرية، وكتب رسالة يبشر الناس في دمشق بالنصر الذي حققه المسلمون على المغول وهزيمتهم أمام بسالة جيشه «. . . وهو أول كتاب ورد منه إلى دمشق. . . » ولدينا نص نقله القلقشندي[1]، ربما كان من إنشاء القاضي الفاضل، جاء فيه:

«. . . أما النصر الذي شهد الضرب بصحته، والطعن بنصيحته، فهو أن التتر خذلهم الله تعالى، استطالوا على الأيام، وخاضوا بلاد الشام، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام:

سعى الطمع المردي بهم لحتوفهم
ومن يسكن ذيل المطامع يُعْطَب

فأقلعت بهم طرائق الضلال، وسارت مراكب أمانيهم في بحار الآمال، فتلك آمال خائبة، ومراكب للظنون عاطبة. . . هذا وعساكر المسلمين مستوطنة في مواطنها، جاذبة عقبانها في وكور ظباها، رابضة آسادها في غيل أقناها، ما تزلزل لمؤمن قدم إلاّ وقَدَم إيمانه راسخة، ولا ثبتت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة ناسخة، ولا عقدت برجمة ناقوس إلاّ وحِلّها الأذان، ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن.

---

(١) صبح الأعشى: ٧/ ٢٦٠، ٢٦٢.

ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل، وصار اليوم كأمس، ونُسخت آية الليل بسورة الشمس، واكتحلت الأعين بمرور السُّبات، وخاف كل من المسلمين إصدار الأبيات:

ينام بإحدى مقلتيه ويتَّقي   بأخرى الأعادي، فهو يقظان نائم

إلى أن تراءت العين بالعين، واضطرم نار الحرب بين الفريقين، فلم تَر إلاّ ضرباً يجعل البرق نضواً، ويترك في بطن كل من المشركين شلواً. . . وقتل من المشركين كل جبار عنيد، ذلك بما قدَّمت أيديهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾».

هذا الكتاب الذي يحمل بشارة النصر على المغول كان له وقع إيجابي شديد على الناس في بلاد الشام. فقد سُرُّوا به سروراً كبيراً، وترجموا سرورهم إلى مجموعة أعمال انتقامية ضد نصارى بلاد الشام لأنهم «. . . في مدة استيلاء التتر همّوا مراراً بالثورة على المسلمين، وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم، وأعلنوا بضرب الناقوس، وركَّبوا الصليب، وشربوا الخمر في الطرقات ورشُّوه على المسلمين. . .»[1]

---

(١) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر: ٨/ ٥٢؛ المقريزي، السلوك: ١/ ٤٣٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٨١، وقد طالت هذه المذابح شراذم التتار الذين وجدهم الناس بالشام، كما راح ضحيتها أولئك النفر من =

وامتدت أيدي الانتقام إلى اليهود، فنهب أهل دمشق ممتلكاتهم، وباتت الفوضى تهدد الحياة في بلاد الشام لولا أن بادر الجنود بمنعهم. ثم وصل الأمير جمال الدين المحمدي الصالحي بمرسوم السلطان قطز في نهار اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان بتأمين الناس وتوطينهم، وبذلك هدأت الأحوال في دمشق التي صارت من أملاك سيف الدين قطز.

وفي يوم الأربعاء آخر شهر رمضان من تلك السنة وصل السلطان المظفر سيف الدين قطز إلى ضواحي دمشق، حيث عسكر هناك حتى ثاني شوال، فدخل دمشق وأقام بقلعتها[١].

وهكذا، استولى المظفَّر قطز في غضون عدة أيام على عاصمة الشام، واستتب الأمن والنظام بسرعة. وفي غضون أسابيع قليلة تمكن من الاستيلاء على سائر بلاد الشام، حيث أقيمت له الخطبة في مساجد المدن الكبرى حتى حلب ومدن الفرات في أعالي بلاد الشام[٢]. ويحكي ابن أيبك الدواداري[٣] ـ نقلاً عن القاضي عز الدين بن شداد ـ أن الملك المظفر قطز عندما ملك دمشق، كان عازماً على التوجه إلى حلب ليكشف أحوالها، ويصلح ما خرب منها على أيدي التتار «... فوشى

= المسلمين الذين كانوا يساعدون التتار أثناء فترة احتلالهم للمدينة.

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٣٢.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٨٢ـ٨٣.

(٣) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر: ٨/ ٦٠.

إليه واشٍ أن الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري مع جماعة من الأمراء البحرية متنكرين له ومتغيِّرين عليه، فضرب وجهه إلى ناحية الديار المصرية. . .».

على أية حال فإن السلطان سيف الدين قطز أخذ يعمل على إعادة الأمن إلى نصابه في جميع مدن بلاد الشام. ويبدو أنه لم يكن مطمئناً تماماً إلى أنه قد أمسك بزمام الأمور السياسية في يديه، فعمل على ترتيب أحوال الشام بسرعة حتى يتمكن من العودة إلى مصر. فأقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه إقطاعات الشام، وجعل نائبه في دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي، ومعه الأمير أبو الهيجاء بن عيسى بن خشتر الأزكشي الكردي[1].

ومن مفارقات التاريخ في تلك الفترة أن السلطان المظفر سيف الدين قطز أعاد ملوك الأيوبيين أصحاب العروش الصغيرة إلى عروشهم ملوكاً تابعين لسلطان مصر المملوكي، بعد أن كانوا يحاولون محاولات مستميتة عزل سلاطين المماليك، فقد بعث إليه الأشرف موسى، حاكم حمص، والذي كان هولاكو قد عينه نائباً له في حكمها وفي بلاد الشام، يطلب الأمان، فاستجاب قطز وأمّنه وأقره على عرشه. كذلك بعث بالملك المظفر علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ، صاحب سنجار،

---

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٣٣.

ليكون نائباً للسلطان في مدينة حلب، ووزع الإقطاعات في المناطق الريفية المحيطة بحلب على الأمراء الموالين له.

كذلك قام سيف الدين قطز ببعض التعديلات الإدارية البسيطة في بلاد الشام، فأقر الملك المنصور على حماة وبارين، وأعاد له المعرَّة التي كانت بيد حكام حلب منذ سنة ٦٣٥هـ. ومن ناحية أخرى، أخذ منه سلمية وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنى بن مانع أمير العرب، وعيَّن الأمير شمس الدين آقوش البرلي العزيزي أميراً بالساحل وغزة ومعه عدد من أمراء العزيزية. وكان هذا الأمير قد فارق الناصر يوسف، صاحب دمشق وحلب، وانضم إلى قوات السلطان قطز في القاهرة، ثم خرج في جيش السلطان وحارب معه في عين جالوت[١].

هكذا قام السلطان قطز بترتيب حكم الشام، وأعاد إلى ربوعها الأمن والاستقرار الذي كان مفقوداً منذ غزاها المغول. وفي تلك الأثناء

---

(١) المقريزي، السلوك: ١ / ٤٣٣؛ والمماليك العزيزية، ومنهم شمس الدين آقوش، هم مماليك الملك المعز محمد صاحب حلب، وبعد وفاته انتقلوا إلى خدمة ابنه الناصر يوسف؛ وقد غير هذا الأمير ولاءه عدة مرات حتى اعتقله الناصر يوسف بقلعة عجلون، ثم أطلق سراحه عندما غزا التتار بلاد الشام. فلجأ البرلي وأصحابه إلى مصر حيث أكرم قطز وفادتهم.
راجع: أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر: ٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦؛ العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص١٧١.

كان الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري يطارد شراذم المغول في أعالي بلاد الشام حتى لحق بهم في حمص، وطلب المغول الفرار بحياتهم و«. . . ألقوا ما كان معهم من متاع وغيره، وأطلقوا الأسرى، وعَرَّجوا نحو طريق الساحل، فتخطَّف المسلمون منهم، وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا أكثر، فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره وقتل نائبه كتبغا عظم عليه، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك، ورحل من يومه. . . »[1].

وفي اليوم السادس والعشرين من شهر شوال توجه السلطان سيف الدين قطز بجيشه الظافر صوب مصر، وبينما كانت القاهرة تتزين لاستقبال القائد المنتصر كان القدر يخبئ له مصيراً مأساوياً على يد أبرز قادة جيشه وغريمه الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري.

* * *

---

(١) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٣٤.

الفصل السادس

نهاية البطل

الفصل السادس

نهاية البطل

الاستعداد للعودة إلى مصر، بداية المتاعب، مقتل السلطان قطز الأسباب والنتائج، ملاحظات ختامية

بينما كان السلطان المظفر سيف الدين قطز يستعد للعودة إلى مصر، التي أعدت زينتها لاستقبال البطل المنتصر بما يليق، وما حققته جيوشه من انتصارات باهرة ضد عدو مخيف، تطورت الأحداث بالشكل الذي جعل السلطان قطز يلقى حتفه قبل أن يرى الزينات التي أعدها رعاياه لاستقباله.

كان السلطان قد رتب الأمور في بلاد الشام، وعين النواب والولاة والشادين، ثم خرج من دمشق عائداً إلى مصر. وكان قد قرر التوجه إلى حلب، ولكن بعض الوشاة أبلغوه أن الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وجماعة من الأمراء البحرية قد تنكروا له، وأنهم يضمرون شراً[1].

ثم خرج المظفر قطز من دمشق عائداً إلى مصر حتى وصل إلى بلدة

---

(١) ابن أيبك الدواداري. كنز الدُرر: ٨/ ٦٠؛ المقريزي، السلوك: ١/ ٣٤٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٨٢.

القصير[1]. وبقي السلطان بهذه البلدة مع عدد من خواصه على حين رحل بقية الجيش إلى الصالحية بإقليم الشرقية في مصر، وهناك أقيم الدهليز السلطاني (الخيمة السلطانية). وفي الوقت نفسه بلغت مسامع الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري أنباء عن أن السلطان قطز يضمر له السوء، فبالغ في الحرص والحذر، وبات الغريمان يتربص كل منهما بالآخر.

ولكن بيبرس البندقداري، بما عرف عنه من جسارة ودهاء، بادر إلى العمل ضد السلطان «. . . وحدَّث بيبرس جماعة من الأمراء في قتل السلطان: منهم الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير سيف الدين بهادر المعزي، والأمير بكتوت الجوكندار المعزي، والأمير بيدغان الركني، والأمير بلبان الهاروني، والأمير بدر الدين أنس الأصبهاني»[2]، وأخذ أولئك الأمراء يتحينون الفرص لقتله إلى أن وصل إلى القصير «. . . وقالوا: متى فاتتنا هذه المنزلة وصل إلى القلعة، وأعجزنا مرامه، ولم نأمن انتقامه. . . »[3].

---

(١) هي اليوم قرية الجعافرة إحدى قرى مركز فاقوس بمحافظة الشرقية في مصر؛ انظر: النجوم الزاهرة: ٧/ ٨٣، هامش رقم ١.
(٢) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٣٥.
(٣) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة: ٩/ ٧٣.

هكذا، عقد المتآمرون العزم على قتل السلطان سيف الدين قطز، وحرمانه من التمتع بثمار النصر الكبير الذي أحرزه على جحافل المغول. وقد تنوعت روايات المؤرخين المعاصرين حول الأسباب التي أدت إلى هذا الموقف من جانب ركن الدين بيبرس البندقداري ورفاقه، ويحسن بنا أن نحاول مناقشة هذه الأسباب:

يقول ابن أيبك الدواداري[1]: «وحكى لي والدي ـ رحمه الله ـ عن مخدومه الأمير سيف الدين بلبان الدوادار الرومي، قال: إن يوم المصاف هربت جماعة من الأمراء من خشداشية الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فلما انتصر الإسلام، تنمَّر عليهم السلطان المظفَّر، ووبخهم، وشتمهم، وتوعدهم. فأضمروا له السوء، وحصلت الوحشة منذ ذلك اليوم. ولم تزل الحقايد والضغائن تتراءى في صفحات الوجوه وغمزات العيون، وكل منهم يترقب من صاحبه الفرصة...».

أما المؤرخ تقي الدين المقريزي[2] فيقول: «إن سبب ذلك أن الأمير ركن الدين بيبرس طلب من السلطان المظفر قطز أن يولِّيه نيابة حلب، فلم يرضَ، فأضمرها في نفسه «... ليقضي الله أمراً كان مفعولاً...».

---

(١) كنز الدرر: ٨/ ٦٠.
(٢) السلوك: ١/ ٤٣٤.

أما بيبرس الدوادار ـ وهو أقربهم إلى الأحداث ـ فيقول[1]:

«. . . وذلك أنه (قطز) رحل من دمشق عائداً إلى الديار المصرية، وفي نفوس البحرية منه ومن أستاذه ما فيها لقتلهما الفارس أقطاي، واستبدادهما بالملك، وإلجائهم إلى الهرب والهجاج، والتنقل في الفجاج، إلى غير ذلك من أنواع الهوان التي قاسوها، والمشقات التي لبسوها. وإنما انحازوا إليه لما تعذَّر عليهم المقام بالشام، والتناصر على صيانة الإسلام، لا لأنهم أخلصوا له الولاء، أو رضوا له الاستيلاء.

وقـد يَنبـتُ المَـرْعـى علـى دِمَـن الثـرى
وتبقـى حـزازات النفـوس كمـا هـي»

هذه هي الأسباب الرئيسية الثلاثة التي ساقها مؤرخو عصر سلاطين المماليك[2]، وربما اختلفت تفاصيل الروايات قليلاً أو كثيراً. والراجح عندي أن السبب الذي ساقه المؤرخ بيبرس الدوادار هو الأقرب إلى منطق الأمور ومفاهيم ذلك العصر.

فربما تكون رواية ابن أيبك الدواداري عن هروب بعض الأمراء من

---

(١) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة: ٩/ ٧٣.

(٢) يقول ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة: ٧/ ٨٢): إن السلطان المظفر قطز كان قد وعد ركن الدين بيبرس بنيابة حلب، «فلما انتصر على التتار انثنى عزمه عن إعطائه حلب، وولاها لعلاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل».

خشداشية بيبرس (أي زملائه) صحيحة، ولكن استقراء أحداث المعركة وما حدث أثناءها من تفكك قسم من الجيش المصري تحت وطأة الهجوم المغولي تجعل مثل هذا الهروب أمراً مفهوماً. ومن ناحية أخرى، فإن عودة أولئك الأمراء إلى ميدان القتال كانت كفيلة بأن تهدئ من نفس السلطان المزهو بانتصاره. ومع التسليم بأن السلطان قد وبخ أولئك الأمراء وشتمهم وتوعدهم، فإن رجلاً في مثل شخصية ركن الدين بيبرس لا يقبل على قتل السلطان لمثل هذا السبب.

أما نيابة حلب، التي كان السلطان كان قد وعد بها بيبرس ثم أعطاها لغيره، فإنها أيضاً لا يمكن أن تكون السبب الأساسي في مصرع السلطان على هذا النحو المأساوي. وربما تكون هذه الحكاية من مظاهر العلاقة السيئة بين الغريمين، بيد أنها لم تكن في تصوري سبب سوء هذه العلاقة.

فحلب ذات موقع استراتيجي هام في شمال الشام، وتتحكم في طرق التجارة وممرات الجيوش، وفي هذا الصدد ينبغي أن نتذكر أن محور الموصل/ حلب تحت قيادة آل زنكي هو الذي نجح في استرداد الرها من الصليبيين في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي. ومن ثَمَّ فربما يكون بيبرس قد طلبها لتكون نقطة انطلاق لتحقيق طموحاته السياسية، وربما يكون قطز قد أدرك هذا فضنَّ بها عليه.

يبقى السبب الثالث الذي تحدَّث عنه بيبرس الدوادار. وفي تصوري أنه السبب الرئيسي لما حدث، فقد كان سيف الدين قطز أكبر مماليك السلطان عز الدين أيبك، وكان من أهم الذين شاركوا في قتل الأمير فارس الدين أقطاي، ومطاردة المماليك البحرية من خشداشيته. كما أن البحرية عاشوا سنوات منفيين في بلاد الشام، ولم يمر عليهم الوقت دون مشكلات وحروب وسجن ومطاردات ساهم في بعضها سيف الدين قطز بشكل مباشر أو غير مباشر. ومن المهم هنا أن نتذكر أن رابطة الخشداشية، التي كانت تجمع بين المماليك، كانت رابطة قوية للغاية. ومن ثَمَّ فإن بيبرس ورفاقه من المماليك البحرية كانوا يحملون رغبة الثأر لزميلهم أقطاي من ناحية، ولزملائهم الآخرين الذين قُتلوا على يد قطز، أو بسببه، من ناحية أخرى، فضلاً عما نالهم من الهوان والمذلَّة في منفاهم من ناحية ثالثة.

ومن المهم أن نتذكر أيضاً أن الدم كان الطريق إلى عرش سلطنة المماليك منذ البداية، فقد اعتلت شجر الدر العرش بعد اغتيال توران شاه آخر سلاطين الأيوبيين في مصر. كما أنها هي وزوجها عز الدين أيبك لقيا حتفهما بسبب الصراع على السلطة. وبسبب طبيعة الحكم العسكري في دولة سلاطين المماليك، وتطبيقاً لمبدأ «الحُكْم لمن غَلَب» الذي قام عليه البناء السياسي لهذه الدولة، كان طبيعياً أن يفكر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري في إزاحة السلطان سيف الدين قطز من طريقه صوب عرش سلطنة المماليك.

والراجح عندي أن بيبرس ظن أنه أحق بالعرش من قطز، لا سيما وأنه صاحب دور كبير في هزيمة الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع قبل عشر سنوات في المنصورة، كما أنه لعب دوراً كبيراً في هزيمة المغول في عين جالوت، كما أنه كان أول من ألحق بهم الهزيمة عندما دمَّر طليعة الجيش المغولي، ثم طارد فلوله المنسحبة حتى أعالي بلاد الشام. لقد كان بيبرس ابن عصره، وكانت تلك هي الأفكار السياسية السائدة آنذاك.

ولا يجب أن يظن أحد أن هذا دفاع عن بيبرس، فالتاريخ لا يجب أن يفسَّر على أساس من أحكام القيمة، وإنما يجب دائماً أن نبحث في طيَّات أحداثه؛ عن العلاقة السببية التي تربط بين هذه الأحداث. كما أننا لا ينبغي أن نحاكم عصراً تاريخياً ما بناءً على مفاهيمنا السياسية أو نظامنا القيمي والأخلاقي، لأن ذلك العصر التاريخي الذي نتناوله في هذه الدراسة لم يكن يحمل مثل هذه المفاهيم، ولم تكن تصرفات الناس فيه محكومة بمثل هذا النظام القيمي والأخلاقي.

ولا يعني هذا، من ناحية أخرى، أننا نقول: إن السلطان سيف الدين قطز كان يستحق هذا الغدر والاغتيال. فالرجل بطل من أبطال تاريخ المسلمين، وعلى الرغم من قصر المدة التي قضاها على عرش السلطنة، فقد استطاع أن يحفر لنفسه مكانة في تاريخ أمته عجز

الكثيرون، ممن قضَوا سنوات طويلة في الحكم، أن يحققوا لأنفسهم أي قدر منها، بل إن كثيرين من الحكام كانت سنوات حكمهم المديدة فراغاً في تاريخ أمتهم.

ولنتابع الآن قصة النهاية لبطل عين جالوت...

ولنقرأ القصة كما ترويها المصادر التاريخية. يقول بيبرس الدوادار، صاحب كتاب «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة»:

«... واتفق أنه (أي السلطان سيف الدين قطز) انفرد عن المواكب لتصيُّد الأرانب، وساق خلف أرنب عرض له، وهم يرمقونه، فلما رأوه قد بعد عن الأطلاب ساقوا في أثره ركضاً، وجاؤوا يتلو بعضهم بعضاً، فتقدم إليه أنس الأصبهاني كأنه يشفع عنده في إصلاح حال الركن البندقداري، لأنه قام في خدمته مدة ولم تعين له، وخرج إلى الغزاة برمحه، وبذل فيها غاية نصحه، فأجابه المظفَّر إلى سؤاله، ووعده بإصلاح حاله، فأهوى إلى يده كأنه يقبلها فأمسكها، فضبطها ضبطاً شديداً، وعلاه الأمير ركن الدين البندقداري بسيفه. ثم اجتمعوا على من يملك، وعرضوا ذلك على الأمراء، فاستعفَّ كل منهم واستقال، وأحجم عن الموافقة وسماع المقال. فعند ذلك تقدم الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب وقال: من هو قتل المظفَّر بسيفه؟ فقالوا: الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري؛ فقال: هو أحق بالملك وأولى، فوافقه

الأمراء على ذلك، وأجلسوا المشار إليه»[1].

ويقدم لنا ابن أيبك الدواداري رواية ثانية تختلف تفاصيلها، إذ يقول:

«وذلك لما وصل السلطان المرحوم الشهيد، سيف الدنيا والدين، قطز إلى منزلة القصير ثار قدامه أرنب، فساق عليه، وأرماه، وتبعه الأمراء المذكورون. وسبق الأمير عز الدين أنس إلى الأرنب وحصلها، فأعجب السلطان منه ذلك، كون هذا الأمير سبق إلى صيده، وترجل عن فرسه وحصله. فقال له: «اسأل ما تريد يا بيك إذا دخلنا مصر» فقال: «يا خوند، الجارية التي أخذها السلطان من سبي التتار». فقال: «نعم، وعليَّ جهازها».

فباس الأرض، وتقدم ليقبل يد السلطان، فمسك قايم سيفه مع يده. وكانت هذه هي الإشارة بينهم، فبادره بكتوت الجوكندار، وضربه على عاتقه حلّه، ثم ثنَّى عليه أنس، فأرماه عن فرسه، ثم رماه بهادر المعزي بسهم، فقتله، وعجَّل الله بروحه إلى عليِّين، وعوضه عن ملكه بملك جوازه الحور العين. وذلك يوم السبت سادس عشر ذي القعدة». وقيل: إن أول من ضربه كان الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وهو الصحيح والله أعلم.

---

(١) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة: ٩/ ٧٣ ـ ٧٤.

«ثم توجهوا إلى الدهليز، واجتمعوا، فتقرر الأمر للأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، بعد محاولات كثيرة. فكان أول من تقدم وبايعه الأمير فارس الدين أتابك، ثم الأمراء على طبقاتهم. ولُقِّبَ الملك الظاهر»[1].

أما رواية المؤرخ تقي الدين المقريزي فتقول: «... فلم يزل السلطان سائراً إلى أن خرج من الغرابي، وقارب الصالحية، فانحرف في مسيره عن الدرب للصيد ومعه الأمراء. فلما فرغ من صيده وعاد يريد الدهليز السلطاني طلب منه الأمير بيبرس امرأة من سبي التتار، فأنعم بها عليه. فأخذ بيبرس يد السلطان ليقبلها، وكانت إشارة بينه وبين الأمراء، فبدره الأمير بدر الدين بكتوت بالسيف، وضرب به عاتقه، واختطفه الأمير أنس وألقاه عن فرسه، ورماه الأمير بهادر المعزي بسهم أتى على روحه، وذلك يوم السبت الخامس عشر من ذي القعدة، ودفن بالقصير، فكانت مدة ملكه أحد عشر شهراً وسبعة عشر يوماً».

«وحُمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة، فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقي الدين قبل أن تعمر، ثم نقله الحاج قطز الظاهري إلى القرَافة، ودفن قريباً من زاوية ابن عبود...»[2].

---

(١) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر: ٨/ ٦١ ـ ٦٢.

(٢) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦؛ ويذكر ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة=

هكذا كانت النهاية المأساوية للبطل الشهيد السلطان سيف الدين قطز. وبغض النظر عن التفاصيل الصغيرة التي اختلفت فيها المصادر التاريخية الأساسية التي اعتمدنا عليها، فالواضح أن فكرة اغتيال السلطان كانت فكرة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، كما أن التنفيذ كان بيده وبأيدي رفاقه المقربين.

ولكن الروايات كلها تجمع على أن القاتل حلّ محل القتيل ببساطة شديدة، وانتقلت السلطة إلى القاتل قبل أن تجف دماء المقتول دون أن يرى كبار أمراء المماليك غضاضة في ذلك. بل إن أتابك العسكر سأل عن القاتل، وحينما علم أنه بيبرس قال له: «يا خوند اجلس أنت في مرتبة السلطنة» وكأن عرش الدولة «مكافأة» لمن تخلَّص من السلطان القتيل. وهكذا، مرة أخرى، ترسَّخ مبدأ «الحُكْم لمن غَلَب».

أما النتائج التي ترتبت على هذه المأساة؛ فكانت على الناحية السياسية تكريساً للقوة والدماء سبيلاً إلى السلطة والعرش. وكانت تلك هي «سُنَّة المماليك في دولتهم»، ولم يحدث طوال مئتين وسبعين عاماً، هي عمر دولة سلاطين المماليك أن وجدنا لهذه السنة تبديلاً.

لقد كانت المفاهيم السياسية للدولة المملوكية نتاجاً للظروف

= في ملوك مصر والقاهرة: ٧/ ٨٥ ـ ٨٦) رواية قريبة من رواية المقريزي.

التاريخية التي خرجت هذه الدولة من رحمها إلى الوجود، ويمكن بلورة هذه المفاهيم السياسية في أن أمراء المماليك اعتقدوا منذ البداية أن عرش البلاد حق لهم جميعاً، يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين. وهو الأمر الذي ظهر واضحاً منذ بداية الدولة سواء في مصرع توران شاه، أو عز الدين أيبك، وشجر الدر، ثم تأكد فيما قام به بيبرس عندما اغتال قطز، كما تكرر في سلسلة انقلابات القصر ومؤامرات الحكم طوال سنوات حكم دولة سلاطين المماليك.

أما النتيجة الثانية الهامة فتتمثل في الحقيقة التاريخية القائلة بأن صعود بيبرس على عرش سلطنة المماليك كان بداية مرحلة هامة في تاريخ الدولة الناشئة، جعلت من هذا الأمير الداهية ـ بقسوته وجبروته وحنكته السياسية وبراعته العسكرية ـ المؤسس الحقيقي لهذه الدولة بفضل إنجازاته السياسية والإدارية والعسكرية. فقد كانت السنوات العشر السابقة مرحلة سيولة سياسية حكم خلالها خمسة من السلاطين تم اغتيال ثلاثة منهم، ونجا الاثنان الآخران بسبب صغر سنهما وانعدام خطورتهما، ولكن بيبرس استمر يحكم سبعة عشر عاماً.

ومن ناحية أخرى، كانت دولة سلاطين المماليك ـ في السنوات العشر الأولى من عمرها ـ تفتقر إلى الشرعية، وتبحث عن الأمن في مواجهة تهديدات الأيوبيين، وجاء إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بمثابة الحل السعيد لمشكلة الشرعية، على حين كانت معركة عين جالوت هي

الحل السعيد أيضاً لمشكلة الأمن وتهديدات الأيوبيين.

وتجسَّدت النتيجة الثالثة لاغتيال قطز في ازدياد اعتماد أمراء المماليك على مماليكهم، بحيث يكوِّنون عدتهم في الصراع الذي يمكن أن يحدث في أي وقت. فقد كان الأمراء الكبار وولاة الأقاليم يمتلكون جيوشاً صغيرة من المماليك تتراوح أعدادها ما بين ثلاثمئة وستمئة مملوك، وربما زادت الأعداد لتصل إلى ثمانمئة مملوك. أما السلاطين فكانت مماليكهم بمثابة الحرس السلطاني الخاص، ومن ثَمَّ كان السلاطين يهتمون بشراء أكبر عدد ممكن منهم. وبعد عصر بيبرس كان من الممكن أن تصل مشتروات السلطان من المماليك إلى ثمانمئة مملوك؛ بخلاف المماليك الذين ينتقلون إلى خدمته وراثةً عن السلطان السابق، أو من مماليك كبار الأمراء الذين يتركون الخدمة بالوفاة أو غيرها[1].

وهكذا تكرست الطائفية بين العناصر المملوكية بالشكل الذي ترك آثاره السلبية على البناء السياسي لدولتهم على المدى الطويل، وربما كانت بذرة هذه الطائفية العسكرية الخطرة قد بذرت في حوادث الاغتيال الأولى التي شهدتها الدولة، ومنها بطبيعة الحال حادث اغتيال السلطان سيف الدين قطز.

---

(١) قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي - عصر سلاطين المماليك، ص١٢ - ١٣.

لقد قتل السلطان وهو عائد بنصره الكبير، وتم تتويج قاتله خَلَفاً له في مكان الاغتيال، ولكن القاهرة عاصمة السلطان، كانت تستعد للقائه. وربما تلخص لنا رواية تقي الدين المقريزي ما حدث: «... وكانت القاهرة قد زُيِّنت لقدوم الملك المظفر قطز، والناس في فرح ومسرات بقتل التتر. فلما طلع النهار نادى المنادي في الناس: «ترحَّموا على الملك المظفَّر، وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس»؛ ثم في آخر النهار للملك الظاهر[1]. فغَمَّ الناس ذلك، وخافوا من عودة المماليك البحرية، وسوء مملكتهم وجَوْرهم...»[2].

كان ذلك هو المشهد الأخير في قصة بطل عين جالوت. ويبدو للناظر في كتب التاريخ التي حفظت لنا هذه القصة أن سيف الدين قطز قد جاء لأداء مهمة تاريخية محدَّدة، فما إنْ أنجزها حتى توارَى عن مسرح التاريخ، بعد أن جذب الانتباه والإعجاب الذي جعل دوره التاريخي ـ على الرغم من قصر فترته الزمنية ـ كبيراً وباقياً.

* * *

(١) اتَّخذ بيبرس لنفسه لقب «السلطان الملك القاهر»، ولكنه تشاءم منه فغيره إلى السلطان الملك الظاهر.

(٢) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٣٧.

مُلحق

مُلاحظات ختاميّة

مُلاحَظاتٌ خِتَامِيَّة

تطرح قصة السلطان الملك المظفَّر سيف الدين قطز قضية هامة، هي قضيــة العلاقـة بين الإنسان الفرد والتاريخ، أو قضيــة البطل في التاريخ. والسؤال الذي يجسِّد هذه القضية هو: هل يمكن للإنســان الفرد، مهما كانت صفاته البطولية وإمكانياته، أن يغير من اتجاه حركة التاريخ؟.

لقد بالغ البعض في دور البطل التاريخي، بحيث خرجوا به عن نطاق القدرات الإنسانية، ونسبوا إلى البطل التاريخي الكثير من الصفات والقدرات التي تجعل منه إلـٰهاً أو نصف إلـٰه.

وكثيراً ما نجد من المؤرخين من ينسب عصراً بأكمله إلى شخص بعينه، ويميل البعض إلى تجسيد البطولة التاريخية في شخص بعينه، فينسبون إليه المآثر والإنجازات. بل يبالغون أحياناً في تجسيم الدور الفردي في التـاريخ؛ يُعزون إلى البطل التـاريخي فضل تغيير مجرى التاريخ، ويجعلونه مسؤولاً عن الحوادث التاريخية الجسيمة، مثل

تحقيق الانتصارات المستحيلة، وبعث الأمة من سباتها. وهم بهذا يُجرِّدون البطل من إنسانيته، ويلصقون به صفات أسطورية وقدرات شبه إلـٰهية.

ولما كانت العملية التاريخية، في حقيقة أمرها، عبارة عن مجموعة لا متناهية من الأفعال الجزئية لأعداد لا تُحْصَى من البشر في اتجاه واحد، فإننا لا نستطيع أن نوافق على الرأي القائل بأن الإنسان الفرد يصنع التاريخ، ولكننا نزعم أن الإنسان، بالمعنى الكلي والاجتماعي، هو الذي يصنع أحداث التاريخ. وبعبارة أخرى فإن التاريخ صناعة بشرية بالمعنى الاجتماعي الكلي؛ فالمجتمعات والأمم هي التي تصنع التاريخ.

وعلى الجانب الآخر نجد أن الإنسان أيضاً «كائن تاريخي»؛ بمعنى أنه من نتاج التطورات التاريخية والظروف التاريخية لعصره. وهذا ما يجعل الإنسان يختلف من عصر إلى آخر. فالإنسان يتحرك ضمن جماعة أكبر تحكمها ظروف تاريخية موضوعية على المستوى السياسي، من حيث توازنات القوى، ومن حيث إمكانيات الفعل السياسي والعسكري المتاحة؛ وعلى المستوى الاجتماعي، من حيث بنية المجتمع وطبقاته وعلاقات القوى والطبقات الاجتماعية فيه؛ وعلى المستوى الثقافي، من حيث رؤية الجماعة الإنسانية لذاتها وللآخر،

والنظام الأخلاقي والقيمي السائد، ومن حيث الموروث الثقافي والديني للجماعة؛ وعلى المستوى الاقتصادي، من حيث الموارد المتاحة وأنماط الإنتاج وعلاقات الإنتاج، ومدى رخاء الجماعة أو مدى عسرها... وهكذا، يجد الإنسان نفسه محاطاً بظروف موضوعية ضاغطة تحكم رؤاه كما تتحكم في حركته.

ومن هنا يصبح من العبث أن نتحدث عن أن فرداً يصنع تاريخ الجماعة، أو حتى يغير مسار حركة هذا التاريخ. ففي تصورنا أن الإنسان الفرد لا يمكن أن يصنع تاريخ أمة ما، أو أن يغير من اتجاه حركة التاريخ مهما أوتي من مواهب عبقرية، أو خصال قيادية أو ميزات وسجايا غير عادية. والدليل على هذا متواتر ومتكرر في التاريخ الإنساني في كل زمان ومكان. فمن ذا الذي ينكر صفات علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أو عمر بن عبد العزيز، أو الأشرف طومانباي؟ ومع ذلك، فإنهم وغيرهم، لم يستطيعوا تغيير حركة التاريخ بما يتفق مع مُثُلهم العليا وشجاعتهم النادرة.

فالبطل التاريخي يتألق دوره عندما تكون مميزاته ومواهبه وإمكانياته الشخصية استجابة لمتطلبات عصره وحاجات أمته. ولم يكن السلطان المظفَّر سيف الدين قطز استثناء في ذلك.

ومن المهم أن نلاحظ أن قطز كان نتاجاً حقيقياً لعصره من ناحية،

كما جاءت مواهبه وأخلاقه وطموحاته متوافقة مع مطالب الأمة الإسلامية آنذاك من ناحية أخرى.

لقد كان من أسرة حاكمة في خوارزم، واسمه « محمود بن ممدود»، وكانت أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وكان أبوه ابن عم هذا السلطان. وتمَّ سبْيُه عندما دمر التتار مملكة خاله، وبيع بأسواق الرقيق بدمشق، ثم انتقل إلى القاهرة. وهو ما يعني أنه وعائلته كان ضحية مباشرة للهجوم التتري، كما أنه من ناحية أخرى تربَّى في ظل ظروف هيأته لأن يكون واحداً من المماليك. تلك الطائفة من المجلوبين عبيداً في طفولتهم الذين قُيِّض لهم حكم المنطقة العربية على مدى ما يزيد على مئتين وسبعين من السنين. ومن ثم فإنه كان ابناً حقيقياً لعصره واستجابة لما كان المسلمون يطمحون إليه.

كذلك كان سيف الدين قطز يحمل في شخصه تناقضات البطل والضحية في آن واحد معاً. لقد تمكن بفضل تطورات الأحداث، التي أحسن استغلالها لصالحه، أن يرتقي عرش البلاد عن طريق الدماء والعنف الذي ساهم فيه. ولما دانت له السلطة كرَّس السلطة والعرش والجيش وموارد البلاد لتحقيق هدف الأمة بهزيمة المغول، وكان ذلك هدفاً وثأراً شخصياً له. ومن جهة أخرى، كان طريق الدم والعنف وصولاً إلى عرش السلطنة، الذي ساهم هو في بنائه، هو الطريق الذي

سار فيه قاتله وخليفته ركن الدين بيبرس البندقداري.

لقد وصف المؤرخون السلطان سيف الدين قطز بأنه كان «بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً، حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار...» وهي كلها صفات كانت تحتاجها الأمة في القائد الذي تعيَّن عليه أن يواجه التتار الذين قضوا على الجناح الشرقي للعالم الإسلامي، ودمروا الخلافة العباسية، وأوشكوا على اجتياح الجناح الغربي.

وهكذا جاءت مواهبه موافقة لحاجات الأمة، فبرز بطلاً في سجل صفحات تاريخها الطويل. ولكنه من ناحية أخرى، لم يكن يمتلك ذلك القدر من الجسارة وانعدام الرحمة الذي ميّز غريمه ومنافسه ركن الدين بيبرس، فذهبت حياته ضحية الصراع على العرش والسلطة. حقاً لقد كان قطز البطل المخلِّص والضحية المخدوعة في الوقت نفسه، بحيث تجسَّدت فيه تناقضات ذلك العصر المحيِّر المثير.

ومن الأمور ذات الدلالة في قصة بطل عين جالوت أن الأمة الإسلامية كانت ما تزال قادرة على أن تتصدَّى للأهوال والمخاطر التي أحدقت بها، وكان الزمان ما يزال يخبئ لها بعضاً من أهم إنجازاتها العسكرية والثقافية على الرغم من تدهورها السياسي.

فقد أدَّى التشرذم السياسي والأنانية وضيق الأفق الذي وصم حكام

العالم الإسلامي منذ أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، إلى نجاح الصليبيين في إقامة مملكة وثلاث إمارات على الأرض العربية، فضلاً عن احتلالهم القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين. وفي خضم الصراع ضد الكيان الصليبي وظهيره الأوروبي المساند اختفت الخلافة الفاطمية، وتجلّى ضعف الخلافة العباسية وعبثية الكيانات السياسية الهزيلة ببلاد الشام. وجاءت دولة آل زنكي، ثم دولة بني أيوب لتقود حركة تصفية الوجود الصليبي على الأرض العربية، ولتؤكد حيوية الأمة الإسلامية. ثم جاءت الموجة التترية الظالمة وذابت الخلافة العباسية في طياتها، وظهرت دولة سلاطين المماليك من خلال معركتين، بينهما عشر سنوات، أولاهما ضد الصليبيين في مصر، والثانية ضد المغول في بلاد الشام؛ تأكيداً جديداً على حيوية الأمة الإسلامية وقدرتها.

على أن عين جالوت وبطلها السلطان سيف الدين قطز بلورت مفهوم الشرعية التاريخية للحاكم، فقد استندت الشرعية التاريخية لدولة سلاطين المماليك على قيامهم بدور المدافع عن الأمة الإسلامية والقوة الضاربة التي تحمي حضارة هذه الأمة. إذ برز دورهم العسكري والسياسي أثناء الصراع ضد قوات الحملة الصليبية السابعة في المنصورة، وكان ذلك بمثابة صرخة الميلاد التي أعلنت عن خروج دولتهم إلى الوجود. ثم تأكدت هذه الشرعية التاريخية مرة أخرى بعد

عشر سنوات عندما دَحَروا قوات التتار الظالمة عند عين جالوت وبيسان. وبعدها لم يجد السلطان الظاهر بيبرس صعوبة في الحصول على الشرعية السياسية عندما أعاد إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة.

وهكذا ورث المماليك عروش سادتهم الأيوبيين لأنهم قاموا بالدور التاريخي الذي فشل الأيوبيون الأواخر في القيام به؛ أي التصدِّي لأعداء الأمة الإسلامية وحماية ترابها ومقدساتها.

وتتمثل آخر ملاحظاتنا الختامية في أن الناس في كل زمان ومكان قادرون على صنع النصر من رماد الهزيمة، وبناء الحضارة في خرائب العدوان، وزرع حدائق العلم والنور في ظلمات العدوان، إذا وجدوا من يُحسن قيادتهم، ويضرب لهم المثل والقدوة ويتميز بالتضحية والشجاعة وإنكار الذات. وكان السلطان المظفَّر سيف الدين قطز تجسيداً لهذا رحمه الله، فكانت أموال الرعية وأرواحهم خير معين له في ميدان القتال، الذي ذكرت المصادر التاريخية أن المتطوعين فيه كانوا أكثر عدداً من الجنود النظامية.

* * *

المصادر والمراجع

ابن الصيرفي (علي بن داود الجوهري):

ـ إنباء الهصر بأنباء العصر

(تحقيق الدكتور حسن حِبْشي) دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠م.

ابن إياس (محمد بن أحمد الحنفي):

ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور

(تحقيق محمد مصطفى، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٣م).

ابن أيبك الدواداري (أبو بكر عبد الله بن أيبك):

ـ الدرة الذكية في تاريخ الدولة التركية. وهو الجزء الثامن من كتاب كنز الدُرر وجامع الغُرر، تحقيق أولرخ هارلمان، القاهرة ١٩٧١.

ابن تَغْري بَرْدي (جمال الدين بن يوسف أبو المحاسن، ت٨٧٤هـ):

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٩م، ج٦.

ابن حجر (الحافظ ابن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ):

ـ إنباء الغُمر بأنباء العمر

(تحقيق الدكتور حسن حبشي، المجلس الأعلى لرعاية الشؤون الإسلامية، القاهرة ١٩٦٩ ـ ١٩٧٢م).

ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت٨٠٨هـ):

ـ المقدمة، المطبعة الأميرية ببولاق/ القاهرة ١٣٢١هـ.

ابن عبد الظاهر (محيي الدين بن عبد الظاهر ت٦٩٢هـ):

ـ الروض في سيرة الملك الظاهر، نشره د. عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦م.

ابن فضل الله العمري (شهاب الدين ابن فضل الله العمري، ت٧٤٩هـ):

ـ التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة ١٣١٢هـ.

ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ـ ممالك مصر والشام والحجاز واليمن (تحقيق أيمن فؤاد سيد) المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٥م.

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم، ت٦٩٧هـ):

ـ مُفَرِّج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٢.

(تحقيق الدكتور حسنين ربيع، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٢ ـ ١٩٧٧م).

أحمد مختار العبادي:

ـ قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت ١٩٨٦م.

أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل، ت٧٣٢هـ):

ـ المختصر في أخبار البشر، جزء ٣، القاهرة ١٣٢٥هـ.

أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسي، ت٦٦٥هـ):

ـ الذيل على الروضتين، القاهرة ١٩٧٤م.

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن):

ـ حسن المحاضرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، جزءان.

(تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م).

القلقشندي (أبي العباس أحمد بن علي، ت٨٢١هـ):

ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبعة دار الكتب المصرية.

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي، ت٨٤٥هـ):

ـ الخطط المقريزية، دار صادر ـ بيروت، د. ت، ج٢.

ـ السلوك لمعرفة دول الملوك.

(تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور، القاهرة ١٩٣٤/١٩٥٨م).

النسوي:

ـ تاريخ السلطان جلال الدين منكوبرتي.

بارتولد:

ـ تركستان:

ترجمة صلاح الدين هاشم، الكويت ١٩٨١م.

بيبرس الداودار:

ـ زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج٩. (تحقيق زبيدة عطا).

عادل هلال:

ـ العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٦م.

عاشور، سعيد عبد الفتاح:

ـ المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٣م.

فاسيلي فلاديمير وفتش بارتولد:

ـ تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي

(نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم، الكويت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

قاسم عبده قاسم:

- ماهية الحروب الصليبية، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٣م.

- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي - عصر سلاطين المماليك دار الشروق، القاهرة ١٩٩٤م.

قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي:

- الأيوبيون والمماليك - التاريخ السياسي والعسكري، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٥م.

محمد مصطفى زيادة (دكتور):

- حملة لويس التاسع وهزيمته في المنصورة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، القاهرة ١٩٦١.

محمود نديم أحمد فهيم:

- الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.

مجموعة وثائق دير سانت كاترين، أرقام ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠.

المراجع الأجنبية

Ashtor E,:
Asocial and Economic History of the Near East in the Middle Ages, (Collins, London 1976.
Atiya (A. S),:
The Crusades in the Later Middle Ages, (London 1938).
Claude Cahen,:
The Mongols and the Near East, in Setton (ed.), A History of the Crusades vol. II.
Hamilton A. R. Gibb,:
The Ayyubids, in Setton (ed.,) A Hist. of the Crusades, II.
Joinville,:
The Life of Saint Louis, (Transl. with an introduction by M. R. B Shaw O, penguin 1975.
Joseph. R. Strayer,:
The Crusades of Louis IX, in Srtton (ed.), A Hist., Of the Crusades. II.
Mustafa Ziada,:
The Mamluk Sultan, in Setton (ed.), A History of the Crusades, vol. II.
Runciman, S.,:
A History of the Crusades (Cambridge 1957), III.
Encyclopadia of Islam, Art. Ain Djalit.

فهرس

الموضوع **الصفحة**

مقدمة ٥
الفصل الأول : الظروف التاريخية لقيام دولة سلاطين المماليك . . ١١
الفصل الثاني : دولة سلاطين المماليك ـ الأساس السياسي ٣٩
الفصل الثالث : قطز : من المملوك إلى السلطان ٦٥
الفصل الرابع : الخطر التتري ٩٥
الفصل الخامس : معركة عين جالوت ١١٧
الفصل السادس : نهاية البطل ١٤٣
ملحق : ملاحظات ختامية ١٥٩
المصادر والمراجع ١٦٩
الفهرس ١٧٦

* * *